سخرية الحمدوي

دراسة فنية

الدكتور
ماجد بن
محمد الماجد*

* بكالوريوس في اللغة العربية من جامعة الملك سعود - كلية الآداب.
- ماجستير في البلاغة والنقد من الجامعة نفسها.
- دكتوراه في البلاغة والنقد من الجامعة نفسها، مع التوصية بطبعها.
- له الكثير من البحوث العلمية.
- عضو في الكثير من اللجان المتخصصة.
- يعمل الآن أستاذاً مساعداً بجامعة الملك سعود - كلية الآداب - قسم اللغة العربية.

توطئة :

يدرس هذا البحث سخرية الشاعر العباسي إسماعيل بن إبراهيم الحمدوي - وقيل الحمدوني - ؛ الذي اشتهر بمقطوعاته الساخرة في "طيلسان ابن حرب" و"شاة سعيد" وغيرهما من الموضوعات ؛ التي تناولها البحث وتتبعها في شعر الحمدوي ؛ موضحاً أهم الروافد التي أثرت سخرية الحمدوي وأغنت تجربته الشعرية ، كما يبين البحثُ خصائصَ سخرية الحمدوي وما اتسمت به معانيه وصوره من الاختراع واللطافة وحسن المأخذ ، كما درس البحث خصائص أسلوبه الشعري من حيث تميزه في الصياغة الفنية، والسبك الشعري ، وسائر الخصائص اللغوية والبيانية التي حفلت بها مقطوعاته الساخرة .

المقدمة :

إسماعيل بن إبراهيم الحمدوي وقيل الحمدوني ، "والصواب الحمدوي نسبة إلى حمدوية ، وهو جد الشاعر أبي علي إسماعيل بن

إبراهيم ابن حمدوية البصري الحمدوي الشاعر الأديب" [١] شاعر عباسي ساخر لم تقف عند أشعاره ركائب النقد ، فمرت به عجلى ، تحث خطاها إلى غيره من الشعراء . ولذا كان هذا البحث وقفة مع شاعر مطبوع على السخر ، مبدع في طرائقه ، سابق إلى المعاني ، يتسم بالذكاء ، والجرأة والشجاعة ، والخيال الخصب ، ونسج الصلات بين الأشياء ، ولحظ التشابه ، وعقد المقارنات . شاعر يتوافر على قاموس شعري غني ، وثقافة عريضة تمتح من عيون الثقافة الموسوعية ؛ ليبدع منها صور السخرية التي استحسنها نقاد الشعر والبصراء به، ومستمداً مدد سخريته من مدينته البصرة التي كانت بزمانها ومكانها منبعاً للسخرية، وما اشتهر به العصر العباسي من الترف والرخاء، وشيوع مجالس الأنس والسمر، وتنافس الشعراء في السخر ، وتلازُّهم في الإضحاك . وتزداد طولا قامة شاعرنا الساخر حين نعلم قلة الموضوعات التي عرض لها في سخريته، وكيف ولد منها معاني هي في الغاية اختراعاً ولطافة ، وأشهر تلك الموضوعات : "الطيلسان"، و"شاة سعيد"، وقد حولهما شاعرنا إلى ما يشبه الأسطورة وبخاصة الطيلسان الذي صار يضرب به المثل[٢] .

---

(١) انظر : "**ربيع الأبرار ونصوص الأخبار** لمحمد بن عمر الزمخشري ؛ تحقيق الدكتور سليم النعيمي ٠- بغداد : مطبعة العاني ، (د.ت) ، ٣٢/١ . وهو اختيار الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج في تحقيقهما كتاب "الورقة" لمحمد بن داود الجراح ٠- ط٢ ٠- القاهرة : دار المعارف ، (د.ت) . ص ٦١ .

(٢) انظر : **طبقات الشعراء** . لابن المعتز ؛ تحقيق عبد الستار فراج ٠- ط٣ ٠- القاهرة : دار المعارف ، (د.ت) ، ص ٣٧٠ ، وانظر : وفيات الأعيان . ابن خلكان ؛ تحقيق إحسان عباس ٠- بيروت : دار صادر ، ١٩٧٧م ٧/٩٨ ، **وفوات الوفيات** . محمد الكتبي؛ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ٠- القاهرة : مكتبة النهضة ، ١/ ,١٧ و انظر : **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** ؛ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ٠- القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٥ م ، ص٤٩٩ .

وأما شاة سعيد فيكفي أن نقرأ ما ذكره الثعالبي وابن الجراح عنها(١) .

والسخرية مشتقة من مادة "س خ ر" ، وأصل التسخير: التذليل جاء في اللسان: سخر منه وبه سخراً وسخرة وسخرية : هزئ به ، و سَخَرته: أي قهرته، وذللته ، وسخره تسخيراً: كلفه عملاً بلا أجرة(٢) . ولقد تخيرت "السخرية " لأنها أقرب الكلمات دلالة على موضوع البحث، فالتذليل هو ما يقصده الشاعر حين يسخر من ضحيته، فهو يريد إخضاعه له، وتحقيره، والوضع من شخصيته فـ " في السخرية لين أشبه بلين الأفاعي ، والساخر أفعى ليس له صوت حين يسير أو حين يسخر، ولكنه يقتل بسخريته"(٣) . كما أن السخرية هي " فن المساءلة القائم على مظهر السذاجة مع إخفاء المعرفة "(٤) وقد لاحظ لوسبيرغ أن فن السخرية لا يهدف إلى ربح المعركة وحسب، بل يسعى أيضاً إلى نزع الثقة من الخصم ، وتنقيصه أمام الأشهاد، وفي هذا يكمن بعدها البلاغي. وحركة الذهاب الديناميكي من الضد إلى الضد التي تنتج التباس اللعبة... السخرية هي وعي لعبي جيد(٥).

وللسخرية مستويات: أولها يعتمد على المفارقات وتعارض القيم الوجدانية. ويكاد عنصر النقد فيه لا يظهر إلا بالنظر إلى الوجود الإنساني بصفة عامة. وهنا تندرج كلمة "نادرة، نوادر " ونكتة" . والمستوى الثاني أقوى من سابقه، غير أن قوة

---

(١) انظر: **الورقة** . ابن الجراح ، ص٦٢ ، **وثمار القلوب** ، ص ٣٠١ .

(٢) انظر : **لسان العرب** ٠- بيروت : دار صادر ، (د.ط) ، (د.ت) ٤ / ٣٥٢- ٣٥٣ .

(٣) انظر : **السخرية في الأدب العربي** . النعمان محمد أمين طه٠- ط١ ٠- القاهرة : دار التوفيقية، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، ص١٣ .

(٤) مقال : بلاغة السخرية الأدبية. محمد العمري، **مجلة علامات** ، نادي جدة ، الجزء العشرون، المجلد الخامس، صفر ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م يونيو، ص ٢٨ .

(٥) المرجع السابق ، ص٣٠ .

النقد فيه تمتص من خلال حميمية واتصال مباشر يقدم ضمانات سياقية تجعل النقد مقبولاً ، وهنا نجد كلمات مثل : المزاح والمداعبة بين الأصدقاء " . والمستوى الثالث: تتجه فيه السخرية نحو الهدف منفصلاً عنه منتصراً عليه، فترد عبارات مثل: التهكم والسخرية بمعناها الخاص. وهذا هو سبب أن السخرية " نشيد النصر" على أنه يمكن تعميم هذا المفهوم على المستويين الآخرين، فالسخرية من النفس قد تتخذ مدخلاً لاستباحة حمى الآخرين(١) .

ولا ريب أن السخرية تلتقي مع الفكاهة في المنبع الواحد الذي تنبعان منه، وقد تختلطان وتمتزجان، غير أنهما تتشابهان من حيث المهمة التي تتصف بها كل منهما ولكن ثمة فارقاً بينهما من حيث طبيعة كل منهما، فالهجاء طريقة مباشرة للهجوم ، أما السخرية فإنها لا تعتمد دوماً على الأسلوب المباشر في مهاجمة المستهدف "الضحية". كما أنها أسلوب من أساليب التنفيس عن النفس حتى لا تضعف أمام الصعاب ، وتقلبات الزمان، وشرور الأعداء، فتمتلىء بالكراهية والحقد فيسلمها ذلك إلى كراهية الحياة والحقد عليها(٢) . ولا ريب أن نفسية الحمدوي ومزاجه كان الأس الأول الذي بنى عليه سخريته، مع الاعتراف بدور البيئة في تكوين شاعرنا ونقصد بها "جميع العوامل الخارجية التي تؤثر في الشخص من بدء نموه"(٣). وأما المزاج فهو "مجموع الخصائص الفسيولوجية المؤثرة في الخلق...الناتجة عن

---

(١) نفسه ، ص٣١ .

(٢) انظر: **السخرية في أدب الجاحظ** . السيد عبدالحليم حسين- ط١ - ليبيا : الدار الجماهيرية، ١٣٩٧هـ - ١٩٨٨م، ص ٩٩ .

(٣) **أسس الصحة النفسية**. عبدالعزيز القوصي- ط٦ - القاهرة : مكتبة النهضة المصرية،١٩٨٠م ، ص٣٤.

مجموع إفرازات الغدد، ومما بالدورة الدموية من خصائص ومركبات، ومن المميزات الطبيعية للمجموع العصبي نفسه"[١] .

والسخرية وليدة الفكاهة والعبث حيناً ، وحيناً تتولد من العداء ، والشاعر الساخر يتسم بالذكاء ، الجرأة والشجاعة ، وهدوء الأعصاب والتماجن ، والخيال الخصب ، ونسج الصلات بين الأشياء ، ولحظ التشابه ، وعقد المقارنات ، وقبل ذلك وبعده فشاعر السخر يتوافر على قاموس شعري غني ، وثقافة موسوعية تُسقى من عيون المعرفة الدينية والأدبية والتاريخية وغيرها ، ثم هو يوظف كل تلك المقومات لإبداع صور السخرية في قالب شعري مثقل بالشرط العروضي في بحوره وتفعيلاته وقوافيه، وكل مواصفات القول الشعري .

وأما ساخرنا فهو الشاعر الحمدوي : إسماعيل بن إبراهيم، واختلف الرواة في اسم جده ، فقيل : حمدون أو حمدونة أو حمدويه، فأبو الفرج الأصفهاني ينسبه إلى حمدويه، وتابعه ابن خلكان فقال الحمدوي، وكان حمدونه أو حمدويه جده صاحب الزنادقة أيام الرشيد[٢]. ولا تذكر المصادر سنة وفاته، ولكنه كان من المعاصرين لأبي العيناء، وسمع دعبل بن علي المتوفى سنة ٢٢٠هـ، وسمع أبا تمام المتوفى سنة ٢٣١هـ. كما عاصر خالد الكاتب المتوفى سنة ٢٣١ هـ في شعره ، والتقى بالمبرد الذي عاش بين عامي ٢٠٥ - ٢٨٥ هـ، وبسعيد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩هـ، وبعبد الصمد بن المعذل الشاعر المتوفى سنة ٢٤٠هـ والخليفة العباسي المتوكل سنة

---

(١) المرجع السابق ، ص٣٥ .

(٢) انظر : **الأغاني** . لأبي الفرج الأصفهاني -٠ ط٢ -٠ بيروت ؛ لبنان : دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م ١٣/٢٦١ ، **ووفيات الأعيان** ٧/٩٥ .

٢٣٥ – ٢٤٩هـ. ومن هنا يمكننا " أن نحدد تلك الحقبة مطمئنين بثلاثين عاماً تتحصر بين سنتي وفاة دعبل سنة ٢٢٠هـ ووفاة المتوكل سنة ٢٤٩هـ"[١] .

ولئن عرف الحمدوي بشعر السخرية ، فإن له شعراً في الغزل ومن ذلك قصيدته التي عارض بها لامية تأبط شراً:

إن بالشعب الذي دون سلع　　لقتيلاً دمه ما يطل

فقال الحمدوي[٢] :

لك ألحاظ مراض ودل　　غير أن الطرف عنها كل

وتشير المصادر إلى أنه كان فقيراً يتكسب بشعره، ساخراً متحامقاً كما قال[٣]:

عذلوني على الحماقة جهلاً　　وهي من عقلهم ألذ وأحلى

حمقي اليوم قائم بعيالي　　ويموتون إن تعاقلت ذلا

ونسبه ابن خلكان إلى البصرة لما كان قد قضى شطراً كبيراً من حياته فيها[٤]. وقد كان الحمدوي مولعاً بالسخرية والهجاء، وقد رويت له أبيات هجا فيها الشاعر عبدالصمد بن المعذل ، فلما هدده ابن المعذل قال يعتذر له[٥] :

ترح طعنت به وهم وارد　　إذ قيل إن ابن المعذل واجد

هيهات أن أجد السبيل إلى الكرى　　وابن المعذل من مزاحي حارد

(١) انظر : **السخرية في الأدب العربي**، ص ٢٣٥ .

(٢) **العقد الفريد** . لابن عبد ربه ؛ تحقيق علي شيري ·- ط١ ·- بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م ٢/ ٣٢٣- ٣٢٤ .

(٣) **غرر الخصائص الواضحة . وعرر النقائص الفاضحة** ، الوطواط محمد بن إبراهيم ·- القاهرة ، ١٢٩٩هـ، ص ١٣٦-١٣٧ .

(٤) انظر : **وفيات الأعيان** ٦/ ٨١ .

(٥) انظر : **الأغاني** ١٣/ ٢٦٢ .

ومما يدل على روحه الساخرة ، وظرفه وسرعة بديهته أنه مر بابن حرب - صاحب الطيلسان - وعلى كتف الحمدوي وسادة، فسأله ابن حرب: لأي شيء هذه يا حمدوني؟ قال: أرقع طيلسانك! فقال: ما تزال تهجونا منثوراً وموزوناً "[1] .

أولا - روافد سخرية الحمدوي :

يكاد يكون شعر الحمدوي محصوراً في السخرية، متفنناً في طرائق التعبير عن جوانب كل موضوع سخر منه ، وهي على كلٍ موضوعات ليست كثيرة، لكنه يتفنن في تقليبها على كل وجه ، مستقصياً جميع المعاني التي يتوصل بها للسخر سواء أكان المسخور منه إنساناً أم حيواناً أم جماداً. ولا ريب أن البيئة التي عاش فيها الحمدوي ، زمانية وهي العصر العباسي ، ومكانية وهي البصرة كانت من أهم روافد سخريته الطريفة، فقد توافر لتلك البيئة بزمانها ومكانها منابع لا تنضب للسخرية، فالزمان يعج بالسخرية والساخرين، ومنهم: أبو دلامة وأبو العبر، وأبو الشمقمق، وأبو عبيدة، والنظام، وثمامة، والأخفش، مع ما جبلت عليه نفسية شاعرنا الحمدوي من روح السخر ، والقدرة على التصوير والتخيل، فأحب السخرية، وأقبل عليها بكليته حتى ملكت عليه نفسه. وغدت جزءاً من شخصيته، وأعانه على ذلك حسه المرهف ، وسرعة ملاحظته، والتقاطه للعيوب، ودقته في رصد التناقضات، واختراع المعاني ، ومهارته في عقد المقارنات والموازنات، وإبداعه في عقد الصلات بين الأشياء، فهو يؤلف مالا يأتلف ، وأداته في ذلك موهبته الشعرية ومخيلته العقلية .

ولعل أهم روافد سخرية الحمدوي استحضاره لكتاب الله وقدرته العجيبة على توظيف الآيات في سخريته من الأشياء ، وشعره مليء بذلك حتى لا تكاد تخلو

---

(١) **جمع الجواهر في الملح والنوادر** . الحصري القيرواني ؛ تحقيق علي البجاوي ·- ط١ ·- القاهرة : دار الحلبي ، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م ، ص ٢٤٠ .

مقطوعة من ذكر آية بنصها أو بمعناها فيذكر "يوم نحس مستمر" و"هشيم المحتظر" و "الجراد المنتشر "وشيء نكر" و "تعاطى فعقر" في مقطوعة واحدة وصف بها الطيلسان[1] :

طَيلسانٌ لابن حَربٍ جاءَني خلعَة في يَوم نحس مستمر

وهو من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾[2] .

فإذا ما صحتُ فيهِ صَيحَة تَركتهُ كهشيم المُحتظر

وهو من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[3] .

وَإذا ما الريحُ هَبَّت نَحوَهُ طَيَّرتَهُ كَالجَرادِ المُنتَشِرِ

وهو من قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[4] .

مُهطعُ الداعي إلى الرافي إذا ما رآهُ قال ذا شيءٌ نُكر

وهو من قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾[5] .

وَإذا رَفاؤُهُ حاوَل أن يَتلافاهُ تعاطى فعَقر

وهو من قوله تعالى : ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[6] .

---

(١) **زهر الآداب وثمر الألباب** . أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ؛ تحقيق علي البجاوي ٠- ط٢٠- القاهرة : دار الفكر العربي ، (د.ت) ١/٥٥٢ .

(٢) سورة القمر ، الآية : ١٩ .

(٣) سورة القمر ، الآية : ٣١ .

(٤) سورة القمر ، الآية : ٧ .

(٥) سورة القمر ، الآية : ٦ .

(٦) سورة القمر ، الآية : ٢٩ .

ويذكر " الطور "[1]:

فهوَ كالطور إذ تجلى لهُ الـلـ ـه فهدت قواه والأركانُ

وهو من قوله تعالى: ﴿ولَمَّا جاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنا وكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ ربِّ أرِني أنظُرْ إلَيْكَ قالَ لَن تَرَانِي ولَكِنِ انظُرْ إلَى الْجَبَلِ فإنِ اسْتَقرَّ مكَانَهُ فَسَوْفَ تراني فَلَمَّا تجَلَّىٰ رَبُّهُ للْجَبلِ جعَلَه دكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وأَنَا أوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] .

و يذكر "السامري"[3] :

أنا مِن خَوفٍ عَليهِ أبَداً   سامريٌّ ليسَ يألو حَذَرَه

الذي ورد خبره في سورة " طه" قال تعالى : ﴿قَالَ فَإنَّا قَدْ فتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾[4] .

ويذكر " إحدى الكبر "[5] :

فيما كَسانيهِ ابنُ حَربُ مُعتَبَر   فانظر إليهِ فإنه " إحدى الكُبَر"

وهي من قوله تعالى : ﴿إِنَّهَا لإحْدَى الْكُبَرِ﴾[6] .

ويذكر "لامساس" [7] :

طيلسان لابن حرب   يتداعى "لا مساسا "

قال تعالى : ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن

(١) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠١ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٣ .
(٣) **زهر الآداب** ١/ ٥٢٥ .
(٤) سورة طه ، الآية : ٨٥ .
(٥) **طبقات الشعراء** ، ص ٣٧٠ .
(٦) سورة المدثر ، الآية : ٣٥ .
(٧) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٨ .

تُخْلَفَهُ وانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾(١) .

وقوله يذكر " الكوكب الدري "(٢) :

كسرَ الكأس وهي كالكوكبِ الـ   ـدريِّ ضمّت من المدام رضابا

وهو من قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٣) .

وقوله يذكر "من وراء الحجرات"(٤) :

صاح بي ابن سعيد   من وراء الحجرات

وقد وردت في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾(٥) .

ومن روافد سخريته الأحاديث النبوية والأقوال المأثورة ، كما في قوله(٦)

وَطيلسانٍ إن تَوَهَّمتَهُ   قدَدتَهُ بالطولِ وَالعَرضِ

جادَ ابنُ حَربٍ لي به بَعدَما   أيقنَ منهُ بالبلى المَحضِ

---

(١) سورة طه ، الآية : ٩٧ .

(٢) المرجع السابق ٢ / ١٠٤٥ .

(٣) سورة النور ، الآية : ٣٥

(٤) **ثمار القلوب** ، ص ٣٧٦ .

(٥) سورة الحجرات ، الآية : ٤ .

(٦) كتاب **التشبيهات** ، لابن أبي عون ؛ تحقيق محمد عبد المعين خان ٠- لندن : مطبعة جامعة كمبردج ، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م ، ص ٢٤٠ . **والبيتان** : الثاني والثالث في **وفيات الأعيان** ٦/ ٩٣

قد لقيَ الناسَ وقاساهُـمُ   عَيشَين من ضَنكٍ وَمن خَفضِ
كَـأنَّ إشـفـاقـي عَليــهِ إذا   غَدَوا إشفاقـي عَلـى عِرضـي
لـو أنـهُ بَعـضُ بَنـي آدَمَ   كـانَ أسـيرَ اللهِ فـي الأرض

فهو في البيت الأخير يشير إلى ما روي : "أن المؤمن إذا بلغ تسعين سنة كتبت له الحسنات ، وكفرت عنه السيئات"(١) .

ومن روافده : معرفته بالتاريخ وسير الأعلام ، كما في ذكره للصحابي جرير ابن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - سيد "بجيلة" حين يقول(٢) :

طيلسانٌ ما زالَ أقدَمَ في الدَهـ   ـرِ منَ الدهـرِ مالرفوه حيلـه
غمرتهُ الرقاعُ فهـو كمصـر   سكنتـه نـزّاعُ كـل قبيلــه
إن أزينه يا ابنَ حربٍ بذمـي   فجريـرٌ قد زانَ قبلـي بجيلـه

ومن روافده : ثقافته الأدبية ، ومعرفته بشعراء العربية وأدبائها ،كما في قوله يذكرحسان بن ثابت(٣) :

يابنَ حَربٍ كَسَوتَني طيلسانـاً   أمرَضَتهُ الأوجاعُ فهُوَ سَقيمُ
أذكَرَتني بَيتاً لحِسّانَ فيــهِ   حُرَقٌ للفؤادِ حـينَ أقـومُ
لو يَدِبُّ الحَوليُّ مِن وَلدِ الذرِّ   عليهـا لأندبَتهـا الكُلـومُ

وقوله يذكر خالد بن يزيد البغدادي المعروف بـ "خالد الكاتب"(٤) :

أفناه جورُ البلى عليه كما   (أفنى الهوى عُمرَ خالد الكاتب)

---

(١) (هو ليس بحديث فقد راجعت كتب الحديث فلم أجده) .

(٢) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٧ .

(٣) **جمع الجواهر** ، ص ١٥٧ .

(٤) كتاب **التشبيهات** ، ص ٢٤٢ .

ويلم بالمغنين وأغانيهم ، كما في قوله يذكر المغني إبراهيم الموصلي(١) :

كَساني ابنُ حَربٍ طَيلساناً كأنَّهُ فتىً عاشقٌ بالٍ مِنَ الوَجدِ كالشَنِّ
يُغَني لإبراهيمَ حينَ لبستُهُ ذهَبتُ منَ الدُنيا ومَا ذهَبت مِني

وهو محيط بعلوم الشعر ونقده كما في قوله(٢) :

تتعب المقلة كي تـد ـرك منه أثرا مـا
تعب الفكرة في إخـ ـراجها البيت المعمّى

ومن روافد سخرية الحمدوي : الحياة اليومية في البصرة وما بها من مستجدات المدنية التي تحفل بها البيئة العباسية ، فها هو يذكر أهل المسألة - وبسخرية مبطنة - حين يسميهم بـ "أهل الصناعة" ، والصناعة تحتاج إلى دربة ومهارة ، أي أنهم كذبة محتالون (٣) :

طيلسانٌ رَفوتهُ وَرَفوتُ الرَ فوَ منهُ وقد رقعتُ رقاعَه
فإذا سائلٌ رآنيَ فيهِ ظنَّ أني فتىً مِنَ أهلِ الصناعَه

ويصور حال الرفو وإبر الخياطة وألوانها(٤) :

قد كانَ أبيضَ ثمَّ مازلنا بهِ نَرفوهُ حَتى اسودَّ مِن صَدَأ الإبَر

وأشكال الغرز (٥) :

تستطير الغروز طولاً وعرضاً فيه حتى كأنهن رخاخ

(١) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠٣ .

(٢) **يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر** . الثعالبي ؛ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد -٠ ط٢ -٠ بيروت : دار الفكر ، ١٩٧٣م ، ص ٢٠٨ .

(٣) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٨ .

(٤) **طبقات الشعراء** ، ص ٣٧١ .

(٥) **كتاب الوافي بالوفيات** . صلاح الدين الصفدي -٠ ط٣ -٠ بيروت : دار صادر ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ٩/ ٨٠.

ويذكر اللعبة المشتهرة في العصر العباسي "الشطرنج" حين يشبه الشاة بها(١):

يقولُ لي الإخوانُ لما طبختها   أتطبخ شطرنجاً عظاماً بلا لحم

ويعرج على السلوك المعيشي لأهل البصرة فيقول عن شاة سعيد(٢) :

مرت بقطف خضر ينشرها   قومٌ فظنت بأنها خضر

ويلم بأصناف طعامهم في قوله عن طفيلي(٣) :

فتلتهم الخوان بما عليه   وتبدرهم إلى بيض البقيله

وتأكل أكل ميسرة وأيضـاً   فلا بد لعرسـك من زليلـه

ويتأثر بالبيئة الفكرية التي شهدها العصر العباسي، فيذكر بعض الفرق ومصطلحاتها ، كما في قوله(٤) :

وَلي طَيلسانٌ إن تأمَّلتَ شَخصَهُ   تَيقنتَ أنَّ الدَهرَ يَفني وَينْقرض

فلو أنَّ أصحابَ الكَلام يَرَونَـهُ   لماروكَ فيهِ وادَّعوا أنـهُ عَـرَض

ولا شك أن بيئة كتلك ، هي تربة خصبة تنبت السخرية في النفوس وبخاصة لدى الشعراء المرهفين ، فالسخرية فن المبالغة والمفارقة وتجاوز المألوف، والزيادة على المعروف، وكلها صفات تعج بها تلك البيئة الخصبة. فرغيف أبي نوح يمسح ويعوذ بآيات قرآنية تحفظه من كل سوء(٥):

لأبي نوح رغيـفٌ   أبداً في حجر دايـه

برَّةٌ تمسحه الدهـ   ـر بكـمٍّ ووقايـه

(١) **ثمار القلوب** ، ص ٣٧٦-٣٧٧ .

(٢) **جمع الجواهر** ، ص ٣٥٥-٣٥٦ .

(٣) **ثمار القلوب** ، ص ٣٥ .

(٤) **جمع الجواهر** ، ص ١٥٦ .

(٥) **المحاسن والأضداد** . الجاحظ ؛ تحقيق علي فاعور وزميليه -. ط١ -. بيروت : دار الهادي ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص١٣٢ .

وله كاتب سر　　خط فيها بعنايه

فسيكفيكهم الله　　إلى آخر الآيه

قال تعالى : ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١) .

ومن روافد سخرية الحمدوي، ما اتسم به العصر العباسي من الترف والرخاء وشيوع مجالس الأنس والسمر، وتنافس الشعراء في الإضحاك ونظم قصائد السخرية، فكانوا ينظمون القصيدة في الأمر المضحك ، ويتفننون في تصويره وتضخيمه، ونسج الحوادث حوله، ويتبارون في إجادة صناعة السخرية من أجل الإضحاك والإمتاع، فالحمدوي يدعو على طيلسانه العتيد ؛ الذي هو أشد تحملاً ، وأصلب عوداً من الجبال التي تتصدع(٢) :

يا ابنَ الحُسَين أما تَرى دَرّاعَتي　　سملاً تَردَّت بالبلى وَتَدرَّعَت

تحكي تَخَرُّقَ طيلساني إنَّها　　منهُ تَعلمتِ البلى فتَّضعضعَت

لا فرّجَ الرحمنُ عَنهُ إنهُ　　أعدى ثيابي كُلها فتَقطَّعَت

فلتحمَدِ اللهَ الجبالُ فإنها　　لو قارَنتَهُ تَخَشَّعَت وتَصدَّعَت

وقد نلمح حيناً في بعض مقطعات الحمدوي الساخرة ما كان يحس به في داخلته من شعور بالغبن، وانتكاس المقاييس في عصره، الذي أعلى الوضعاء، وأركس الشرفاء كما في قوله(٣) :

تسامى الرجالُ على خيلهم　　ورجلي من بينهم حافيه

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٣٧ .

(٢) **وفيات الأعيان** ٧/٩٦ - ٩٧ .

(٣) **المحاسن والمساوئ** . إبراهيم البيهقي ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم -. القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، (د.ت) ١/ ٤٥١ .

فـإن كنـتَ حاملنـا ربنـا   وإلا فأرجل بني الزانيـه

وقوله[1] :

ما ازددت من أدبي حرفا أسر به   إلا تبدلت حرفا تحته شوم

إن المقدم في الدنيا بصنعتـه   أنى توجه منها فهو محروم

ثانيا - موضوعات سخريته:

عرض الحمدوي في سخريته لموضوعات عدة ، منوعة في طبيعتها ، فكان اللباس والحيوان والإنسان والصفات والجبلات ، كلها موضوعات لسخرية شاعرنا :

أ - طيلسان ابن حرب :

«الطيلسان: ضرب من الأكسية... وأصله فارسي إنما هو "تالشان" فأعرب»[2]. وهو طيلسان أهداه إليه أحمد بن حرب المهلبي ، وكان من المنعمين عليه المحسنين إليه ، فلم يرضه، واشتهر أمر الطيلسان حتى ذكره العلماء في كتبهم ، قال ابن المعتز عن الحمدوي وطيلسانه : "وله فيه قريب من مئتي بيت في خمسين قطعة تفتنُ معانيها" [3] . وروي عن أبي العباس المبرد أنه قال عن الحمدوي وطيلسانه : "وأنشدنا فيه عشر مقطعات استحلينا مذهبه فيها، فجعلها فوق الخمسين، فطارت كل مطار، وسارت كل مسار، وروى ابن شاكر الكتبي أنها مئتا مقطوع"[4] وكان الأصل الذي حمل الحمدوي على عمل هذه المقاطيع أنه وقف على أبيات عملها أبو حمدان السلمي في طيلسانه وكان قد أخلق حتى بلي فقال فيه[5]:

(١) **ربيع الأبرار** ، ص ١٧٢ .

(٢) **لسان العرب** . جمال الدين محمد بن منظور ٠- بيروت : دار الفكر ، (د.ت) ٦/ ١٢٤-١٢٥ .

(٣) انظر : **طبقات الشعراء** ، ص٣٧٠ .

(٤) **فوات الوفيات** ١/ ١٧ .

(٥) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠١ , وانظر : **وفيات الأعيان** ٧/ ٩٨ **فوات الوفيات** ١/ ١٧ .

يا طيلسان أبي حمدان قد برمت　　　بك الحياة فما تلتذ بالعمر

في كل يوم له رفا يجدده　　　هيهات ينفع تجديد مع الكبر

إذا ارتداه لعيد أو لجمعته　　　تنكب الناس أن يبلى مع النظر

وأثنى الثعالبي على المعاني التي ابتدعها الحمدوي في طيلسانه فقال : "وانثالت عليه المعاني حتى قال في وصف الطيلسان قرابة مئتي مقطوعة ولا تخلو واحدة منها من معنى بديع ، وصار الطيلسان عرضة لشعره ، ومثلاً في البلى والخلوقة ، والانخراط في سلك : حمار طياب، وشاة سعيد ، وضرطة وهب ، وأير أبي حكيمة"(١) . وقد كان الحمدوي واعياً بالمعاني اللطيفة التي ابتدعها في وصف طيلسانه حتى قال : " وأنا ابن قولي في الطيلسان(٢) :

طال ترداده إلى الرفو حتى　　　لو بعثناه وحده لتهدى

أي أني عرفت به " .

وأما أهم معاني سخريته من الطيلسان فهي :

ذكر البلى الذي أصابه ، ومن أبياته الساخرة في هذا المعنى أن الطيلسان قد بلي حتى أشبه العاشق الذي بلي من الحزن والكمد(٣) :

كَساني ابنُ حَربٍ طَيلَساناً كَأنَّهُ　　　فتىً عاشقٌ بالٍ مِنَ الوَجدِ كَالشَنِّ

يُغَني لإبراهيمَ حينَ لبستُهُ　　　ذهَبتُ منَ الدُنيا ومَا ذهَبت مِني

وهو طيلسان إن بلي فقد أبلى الأمم المتعاقبة(٤) :

لئن بَليتَ فكَم أبليتَ مِن أمُم　　　تَترى أبادَتْهمُ أيامُكَ الأولُ

---

(١) انظر : **ثمار القلوب** ، ص ٦٠٢

(٢) انظر: **الأغاني** ٢٠/ ١٣٨ .

(٣) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠٣ .

(٤) **زهر الآداب** ٢/ ١٠٤٦ .

ولا ترميمه يجدي، فهو ينتكس كلما رمم كالسقيم يعاوده المرض[١] :

وإذا رممناه وقيل لنا قد صح قال له البلى انهدم

مثل السقيم برا فراجَعَهُ نكسٌ وأسلمهُ إلى السقم

ولقد أشبه العاشقين الذين أبلاهم الهوى[٢]:

أفناه جورُ البلى عليه كما (أفنى الهوى عُمرَ خالد الكاتب)

ولعل من إحقاق الحق أن البلى أولى به من شاعرنا[٣] :

فيما كَسانيهِ ابنُ حَربُ مُعتَبَر فانظر إليهِ فإنه إحدى الكُبَر

هُوَ لي وَلكنَّ البلى أولى بـهِ مِني فما يُبقي علَيَّ وَلا يَذر

ولذا لم يجد به ابنُ حرب إلا بعد أن أصابه البلى الخالص[٤] :

وَطيلسـانٍ إن تَوَهَّمتَـهُ قدَدتَهُ بالطول وَالعَرضِ

جادَ ابنُ حَربٍ لي بهِ بَعدَما أيقنَ منهُ بالبلى المَحضِ

وكأنما بين الطيلسان والبلى ثارات وأوتار[٥] :

يا قاتلَ اللهُ ابنَ حَربٍ لقد أطالَ إتعابي عَلى عمـدِ

بطليسانٍ خِلتُ أنَّ البلـى تطلبُهُ بالوتـرِ وَالحقـدِ

ومن معاني سخريته من الطيلسان ذكر رفوه ، فهو في العرض على الرفاء صبحاً ومساءً كآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشياً[٦]:

(١) المرجع السابق ، ١ /٤٠٩ .

(٢) **كتاب التشبيهات** ، ص ٢٤٢ .

(٣) **طبقات الشعراء** ، ص ٣٧٠ .

(٤) **كتاب التشبيهات** ، ص ٢٢٣ ، **ووفيات الأعيان** ٦/ ٩٣ .

(٥) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٦- ١٠٤٧ .

(٦) من قوله تعالى : ﴿النَّارُ يُعرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ غافر : ٤٦ ، وانظر : **طبقات الشعراء** ، لابن المعتز ، ص ٣٧٠ .

يا ابن حَربٍ أطلتَ فقري برفْـوي   طيلساناً قد كُنتُ عنهُ غنيّـا
فهوَ في الرَفو آل فرعَونَ في العَـر   ض على النارِ غُدوَة وَعشيـا

بل ورفا الشاعر رفوه ، ورقع رقاعه حتى لم يجد فيه الرفاء موضع رفو[1] :

طيلسانٌ رَفوتهُ ورَفوتُ الـرَ   فوَ منـهُ وقـد رقعـتُ رقاعَـه
فأطاعَ البلى فصـارَ خليعـاً   ليسَ يُعطي الرَفاءَ في الرَفو طاعه

ولذا فلاعجب أن الرقاع المختلفة تغمره ، كبلد تسكنه قبائل شتى[2] :

طيلسانٌ ما زالَ أقدمَ في الدَهـ   ـر منَ الدهرِ ما لرفوه حيله
غمرتهُ الرقـاعُ فهـو كمصـر   سكنتـه نـزّاعُ كـل قبيلـه

وهو لكثرة ما رفي ، واعتياده الرفو يتهدى طريق الرفاء وحده[3] :

يا ابنَ حَربٍ كَسَوتَني طيلساناً   مَلَّ من صُحبَةِ الزَمان وَصداً
طالَ تَردادُهُ إلى الرَفـو حتـى   لو بَعثناهُ وَحـدَهُ لتهَـدّى

وكـأن الشـاعـر لطول لبثـه عند الرفـاء للرفـو مـرتهن ، وكـأنما دكانه بيت للحمدوني [4] :

فلو تَراني لدى الرَفاء مُرتَبطاً   كأنني في يَدَيهِ الدَهرَ مُرتَهَنُ
أقولُ حينَ رَآني الناسُ ألزَمُـهُ   كأنما ليَ في حانوتـهِ وَطـنُ
مَن كانَ يسألُ عَنّا أين مَنزلنا   فالأقحُوانَة منا مَنـزلٌ قمَـنُ

---

(١) زهر الآداب ٢ / ١٠٤٨ .
(٢) المرجع السابق ٢ / ١٠٤٧ .
(٣) طبقات الشعراء، ص ٣٧٠ .
(٤) ثمار القلوب ، ص ٦٠٣ .

ولايبعد أن هذا الطيلسان ربما تعلم الرفو من حليف الدهر " الرفاء"[١] :

لقد حالفَ الرَفاءَ حَتى كأنَّهُ   يُحاولُ منِهُ أن يُعَلمَهُ الرَفوا

ولقد تبدل ذلك الطيلسان وانقضى ، فهو رفو وحسب[٢] :

يا ابنَ حرب لقد رفوناهُ حتى   بقي الرفو وانقضى الطيلسانُ

وتتعاقب الأجيال على هذا الطيلسان، فلقد مات الرفاء ومات بنوه وشاخ حفدته[٣]:

مـات رفـاؤه ومـات بنـوه   وبدا الشيب في بنيهم وشاخوا

وهذا الرفو ظاهر المعالم لكل مبصر ، بل هو وثيقة آثار تتبدى فيه طرائق الأمم في الرفو[٤] :

قل لابن حرب طيلسانكَ قد   أضوى قواي بكثـرة الغـرم

متبـينٌ فيـه لمبصـره   آثـارُ رفـو أوائـل الأمـم

ومن جوانب سخريته من الطيلسان : ذكر ضعفه ومرضه ، فهو كالموتى بعظامهم الرميم[٥]:

يا ابنَ حَربٍ كَسَوتَني طيلساناً   أمرَضَتهُ الأوجاعُ فهُوَ سَقيـمُ

فإذا ما لبستُـهُ قـالَ سُبحـا   نَكَ مُحيى العظام وَهيَ رَميمُ

بل هو في الضعف كالعجوز[٦] :

وترى ضعفه كضعف عجوز   رثة الحال ذات فقر معيله

---

(١) وفيات الأعيان ٧/ ٩٦ .

(٢) ربيع الأبرار ، ص ٨١٦ .

(٣) وفيات الأعيان ، ٧ /٩٧ .

(٤) ثمار القلوب ، ص ٦٠٣ .

(٥) جمع الجواهر ، ص ١٥٧ .

(٦) زهر الآداب ٢ / ١٠٤٧ .

ومن ذلك ذكر رقة الطيلسان ونحوله ، فكأنما أصابه السل[1] :

أيا طَيلسانيَ أعييتَ طبِّي   أسِلٌّ بجسمِكَ أم داءُ حُبِّ ؟

فحياة الشاعر وقف على حفظ هذا الطيلسان ، وتجنب الآفات[2]:

إنَّ ابنَ حَربٍ كَساني   ثوباً يُطيلُ انحرافه
أظلُّ أدفعُ عَنهُ   وَأتقي كُلَّ آفه
فَقَد تَعلَمتُ من خَشـ   ـيتي عَليهِ الثقافه

غير أنه وإن كان ناحلا فهو يصمد للرياح، وما ذاك إلا لأنها لاتجد فيه ما يقاومها[3]:

ولي طيلسان ناحل غير أنه   ثبوت لهبات الرياح الزعازع
وما ذاك إلا أنه متهتك   يخلى سبيل الريح غير منازع

ومن جوانب السخرية من الطيلسان ذكر قدم العهد وطول العمر، وشدة التمزيق الذي أصابه[4] :

إنَّ ابنَ حَربٍ جادَ لي كاسياً   بطيلسانٍ هَرِمٍ قشعم
انظُر إلى كَثرةِ تَمزيقهِ   كأنما مُزِّقَ في مأتم

فقد طوى القرون والأجيال ، ولبس الأيام[5] :

طيلسان لابن حرب   يتداعى لا مساسا
قد طوى قرناً فقرناً   وأناساً فأناسا
لبس الأيام حتى   لم تدع فيه لباسا

(١) المرجع السابق ١/٥٥٢ .
(٢) **جمع الجواهر** ، ص ١٥٧ .
(٣) كتاب **التشبيهات** ، ص ٢٣٣ ونسبها لابن الرومي .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .
(٥) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٨ .

وهو أقدم من القرون الأولى قوم نوح ، وأخلافهم ، وما زال يتوارث جيلا بعد جيل [1] :

قل لابن حرب طيلسا   نكَ قومُ نوح منهُ أحدث

أفنى القرونَ ولم يزل   عمَّن مضى من قبلُ يُورث

ويصر الحمدوي على صلة الطيلسان بنوح - عليه السلام - فيجعله شراعاً لسفينته[2] :

فَلَستُ أشُكُّ أن قد كانَ دَهراً   لِنوحٍ في سَفينَتِهِ شِراعاً

ولم يعد الشاعر الحمدوي الذي نعرف ، بل هو سامري يخدم ويرعى هذا الطيلسان الممزق[3]:

طيلسانٌ لابن حَربٍ جاءَني   قد قضى التَمزيقُ مِنهُ وَطرَه

أنا مِن خَوفٍ عَليهِ أبَداً   سامريٌّ ليسَ يألو حَذَرَه

ولشدة تمزقه لا يحتمل أن يتأمله أحد[4] :

وطيلسان إن تأملته   لج من التمزيق في محك

كأنه من طول رفقي به   يملكني مذ صار في ملكي

فالدهر يفنى وهو لايفنى، قد تصدع حتى أمن الانصداع[5] :

وَلي طَيلسانٌ إن تأمَّلتَ شَخصَهُ   تَيقنتَ أنَّ الدَهرَ يَفنى وَيَنقَرِض

تَصَدَّعَ حتى قد أمنتُ انصِداعَهُ   وأظهَرَتِ الأيّامُ من عُمرهِ الغَرض

---

(١) وفيات الأعيان ٧ / ٩٧ .

(٢) زهر الآداب ١/٥٥٣ .

(٣) جمع الجواهر ، ص ١٥٦ .

(٤) كتاب التشبيهات ، ص ٢٤١ .

(٥) جمع الجواهر ، ص ١٥٦ .

ويمعن الحمدوي في سخريته، فيزعم أن لهذا الطيلسان أيادي عليه، فقد أنبه ذكرَه بين الشعراء ، وقربه الناسُ لأجله ، واتقوا شرَّ لسانه بعد شعره في الطيلسان ، وكم جلب له من رداء وقميص(١) :

طيلسانٌ لابن حَربٍ   ذو أيادٍ ليسَ تُحصى
أنا فيهِ أشعَرُ النا   س إذا ما الشعرُ نصّا
وأراني صِرتُ أدنى   بَعدَما قد كُنتُ أقصى
وَاتقَاني الناسُ وَازدا   دوا عَلى شعريَ حِرصا
وَلكَم قد حازَ لي أر   ديَة تترى وَقمصا
كانَ دَهراً طيلساناً   ثمَّ قد أصبحَ شِصّا

ولكن شاعرنا مع ذلك يعلن نبذ طيلسانه بعد نفور الناس منه وتجافيهم عن شرائه(٢):

طيلسان خلعتهُ   إذ تجافوهُ في الشرا
كم تغنى عليه حيـ   ـن تهوى بنو الورى
حلَّ بي مثلما علمـ   ـت فجسمي كما ترى

ولما كان الحمدوي مبدعاً في تلك الجوانب الساخرة التي وصف بها الطيلسان، فإنها قد لقيت استحسان العلماء حتى أورد المبرد بعض شعره فيه ، وقال عنه وعن طيلسانه : "فأنشدنا فيه عشر مقطعات ، فاستحلينا مذهبه فيها، فجعلها فوق الخمسين، فطارت كل مطير، وسارت كل مسير، ومن شعره الهزلي فيه قوله(٣) :

يا ابنَ حَربٍ كَسَوتَني طيلساناً   مَلَّ مِن صُحبَةِ الزَمان وَصداً
فحَسبنا نسجَ العَناكبِ لو قيـ   ـسَ إلى ضُعف طيلسانِكَ سَدّاً

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٢) المحاسن والمساوئ ، ص ١٠٦ .

(٣) طبقات الشعراء ، ص ٣٧٠ .

إن تَنقَّستُ فيهِ ينشقُّ شقاً أو تَنَحنَحتُ فيهِ يَنقدُّ قدّاً

طالَ تَردادُهُ إلى الرَفو حَتى لو بَعَثناهُ وَحدَهُ لتهَدّى

ويتأثر الشاعر ابن الرومي بالحمدوي فينظم في طيلسان ابن حرب عشر مقطوعات رائعة يتلاعب فيها بالطيلسان هازئاً زارياً ومنها[1] :

يا بن حرب كسوتني طيلساناً يتجنى على الرياح الذنوبا

طيلسان إن تنفست فيه صاح يشكو الصبا ويشكو الجنوبا

وتهب الرياح من أرض غيري فتهب الغروز فيه هبوبا

تتغنى إحدى نواحيه صوتاً فتشق الأخرى عليه الجيوبا

فإذا ما عذلته قال: مهلاً لن يكون الكريم إلا طروباً

طال رفوي له فأودى بكسبي يا بن حرب تركتني محروبا

ب - شاة سعيد :

هي شاة أهداها إليه سعيد بن أحمد بن جواسبيدان، وكانت أضحية مهزولة، فاستوحى ما قاله أبو الخطاب البهدلي في خروف أهدي إليه ، وكان مهزولاً ، فقال أبو الخطاب[2] :

أهدى إلينا معمر خروفا كان زماناً عنده مكتوفا

يعلفه الكشيح والسفوفا والفارقون بعده ممدوفا

حتى إذا ما صار مستجيفا أهدى فأهدى قصباً ملفوفا

جلل جلداً فوقه وصوفا وكان من فعاله موصوفا

(١) ديوان ابن الرومي؛ تحقيق كامل كيلاني ·- القاهرة : المكتبة التجارية ، ١٩٢٤م ٢/٣١٩ .

(٢) انظر : الورقة ، ص ٦٢، ويقول الثعالبي: "كان المثل يضرب بشاة منيع، ثم تحول المثل إلى شاة سعيد لكثرة ما قال الحمدوي فيها " ، وانظر : ثمار القلوب، الثعالبي ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبرهيم ·- القاهرة : نهضة مصر ، ١٩٦٥، ص ٣٠ .

وأهم المعاني التي ضمنها سخريته من الشاة :

السخرية من ضعفها كما في قوله[1] :

ما أرى إن ذَبحتُ شاةَ سعيد حاصلاً في يديَّ غير الإهاب
ليس إلا عظامها لو تراهـا قلت هـذا أرازنٌ في جـراب

ومن هزالها الشديد فهي عظام نخرة فحسب[2] :

قرَّبَ الناسُ الأضاحي وأنا قربتُ شاتي
شاة سوء من جلود وعظام نخرات

ولاعجب من هزالها وجوعها فهي لم تطعم إلا الشمس والقمر[3] :

أبا سعيد لنا في شاتكَ العبرُ جاءت وما إن لها بولٌ ولا بعرُ
وكيف تبعر شاةٌ عندكم مكثت طعامها الأبيضان الشمس والقمرُ
لو أنها أبصرت في نومها علفاً غنت له ودموع العين تنحدر
يا مانعي لذة الدنيا بأجمعها إني ليفتنني من وجهك النظر

وكم ناشدت وأبانت عن شديد حاجتها ، فلم تجد مجيبا[4]:

وكم قد تغنت إذ تطاولَ جوعُها ولم ترَ عندَ القوم شيئاً منَ الطعم
ألا أيها الغضبانُ بالله ما جُرمي إليك فقد أبليت لحمي على عظمي

ويبلغ بها الجوع حد اللهفة على كل علف تراه[5] :

لسعيد شويهة نالها الضرُّ والعجف
فتغنت وأبصرت رجلاً حاملاً علف

(١) كتاب الوافي بالوفيات ٩/ ٧٦ .
(٢) ثمار القلوب ، ص ٣٧٦ .
(٣) جمع الجواهر ، ص ٣٥٥ .
(٤) ثمار القلوب ، ص ٣٧٦-٣٧٧ .
(٥) جمع الجواهر ، ص ٣٥٦ .

بأبـي مـن يكفـه   برءُ دائـي من الدنـف
فأتاهـا مطمِّعاً   وأتتـه لتعتلـف
ثم ولـى فأقبلت   تتغنى مـن الأسـف
ليتهُ لم يكن وقف   عذبَ القلبَ وانصرف

وبعد عذاب القلب تفضي بها الحال إلى البكاء على العلف كلما مرت به(١) :

تخنقها العبرة إن   مرت بأصحاب العلف
كم قد تغني ولها   شوق إليـه ولهـف
وقد تقطعتْ إلـى   وجهك شوقاً وأسـف

وقد يصحب ذاك البكاء بعض الغناء الذي تجد فيه سلوة (٢) :

مرت على علف فقامـت لـم تـرم   عنهُ وغنت والمدامـع تسجـمُ
وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي   متأخـرُ عنـه ولا متقـدمُ

ولما يئستْ من العلف الحقيقي ظنت كل اخضرار تراه "العلف الأمنية"(٣) :

مرت بقطف خضر ينشرها   قومٌ فظنت بأنها خضـر
فأقبلـت نحوهـا لتأكلهـا   حتـى إذا ما تبين الخبرُ
وأبدلتها الظنونُ من طمع   يأساً تغنت والدمعُ منحدر
كانوا بعيداً فكنت آملهـم   حتى إذا ما تقربوا هجروا

ولما كان هذا السقم غير مسبوق، فقد غدت "شاة سعيد" مضرب المثل فيه(٤):

بشاة سعيد وهي روح بلا جسم   تمثلت الأمثال فـي شـدة السُقـم

(١) المرجع السابق، ص ٣٥٦ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٥٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٥٥-٣٥٦ .
(٤) **ثمار القلوب** ، ص ٣٧٦-٣٧٧ .

يقولُ لي الإخوانُ لما طبختها   أتطبخ شطرنجاً عظاماً بلا لحم
فقلت كلوا منها فقالوا تجمزاً   أتطعمنا ناووس قوم من العُجم
فقلتُ لهم كانت لديهم أسيرة   ترى القتّ في أيدي العدو وفي الحُلم

وتتنامى بلاغة السخرية من هذه الشاة حتى جعل الحمدوي الجيف صويحبات لها تنادي عليها ، فهي مثلهن في المظهر سواء بسواء [1]:

جاءَ سعيدٌ لي بشاة   ذاتِ سقم ودنف
ناحلة الجسم إذا   ما هيَ مرَّت بالجيف
صاحت عليها ها هنا   يا أختنا ذات العجف

ج - السخرية من الأشخاص :

وأبرز الأشخاص الذين سخر منهم شاعرنا الحمدوي :

١ - ابن حرب صاحب الطيلسان :

ولا عجب في نقمة الحمدوي على ابن حرب فهو مهدي الطيلسان ، وتلك جريمته التي لاتغتفر ، ومما قال فيه[2] :

يا قاتلَ اللهُ ابنَ حَربٍ لقد   أطالَ إتعابي عَلى عمد

وقوله[3]:

عجلَ الله نقمة لابن حرب   تدعُ الدار بعد شهرخرابا

٢ - ابن المعذل :

وفي سخريته منه يحسن الحمدوي التلاعب بالألفاظ وتوظيف التجنيس بين الأسماء ومعانيها، فقمة السخر حين تتنامى سخريته من عبد الصمد بن المعذل

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٦ .
(٢) زهر الآداب٢ / ١٠٤٦ .
(٣) المرجع السابق ٢/١٠٤٥ .

فيعقد الصلة بين سبب الخوف ومآل الخوف ، فالسبب هو أبو جعفر الملقب بـ "مضرطان" الذي ضرب ابنَ المعذل حتى أكله الخوف منه ، ولو كان لقب ابن المعذل "مضرطان" فإن الحمدوي لن يفوته الإبقاء على التجنيس وسيلة للسخر الذي نبعه الأول لفظة "مضرطان" وإيحاءاتها التي لا تخفى ، كما أن الحمدوي ليضاعف سخريته يستدعي القرين الذهني و"الطبيعي" للضراط وهو "يفسو" فتبلغ السخرية منتهاها في تلاعب لفظي يجمع بين المطابقة " يفسو - يضرط " و المجانسة الاشتقاقية : "يضرط - مضرطان" ، وتبدو مهارة الحمدوي في السخرية حين يبقي قمة السخر مؤخرة إلى خاتمة المقطوعة ؛ لتكون آخر ما يبقى في ذهن المتلقي ، والكلمة المناسبة لانطلاق الضحكات المدويات ، وهو بصير بهذا الشأن ، وتجدها في أغلب مقطوعاته الساخرة(١) :

ألذ من صحبة القناني — أو اقتراح على قيان

لكز فتىً من بني لكيز — يهدى له أهون الهوان

أهوى له بازل خدب — يطحن قرنيه بالجران

فنال منه ثؤور قوم — باليد طوراً وباللسان

وكان يفسو فصار حقاً — يضرط من خوف مضرطان

٣ - أبو خرزة :

ويسخر الحمدوي من العاشق الوله "أبي خرزة" الذي وقع في حب : "عجاب" ، ثم يحشد متناقضات السخر كلها في هذا الحب غير السعيد ، فطائل هذا العاشق المسكين من حبه التدليك أو الاحتلام ، وإذ يبيت سكران من حبها ؛ فإنه يصبح

---

(١) **الأغاني** ١٣/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

متخماً من الجوع ، وموسراً من العدم ، لايملك إلا قميصاً واحداً ، فجاد به للمحبوبة، وغادر عرياناً مريضاً ، متحسراً على قميصه ! [1] :

ألم ترَ في ابن أبي خرزة يُحبُّ "عجاباً" كما قد زعم
وليس بكفيه من حبها سوى أن يدلِّك أو يحتلم
إذا بات سكران من حبها وأصبح من جوعه متخم
فيا لك من عاشق مفلس أخي صبوة موسر من عدم
ونبئته زارها ليلة تبيل الحمارَ من القُرِّ دم
عليه قميص له واحدٌ يقص عليك حديث الأمم
فغنت فآثرها بالقميص وغودر عريان كالمستحم
وغنى وقد ضربته الشمالُ وأصبح من بردها قد صدم
أخذت بريدي فأعريتني وأورثت جسمي طول السقم

٤ - ابن سالم المغني :

وللمغنين الذين بلوا بسخرية الشعراء ، نصيب من سخرية الحمدوي ، وفي سياق قصصي يسخر الحمدوي من المغني ابن سالم، إذ يستولد الفكاهة من المفارقة بين صورتين، الأولى ابن سالم المختال المعجب بغنائه، المشرئب للخلعة، والأخرى ابن سالم الخطاء الموغل في السخف والغثاثة ، فجزاؤه الضرب بالنعال على قفاه[2] :

بينما نحنُ سالمونَ جميعاً إذا أتانا ابنُ سالم مختالاً
فتغنى صوتاً فكان خطاء ثم ثنى أيضاً فكان محالا
سالنا خلعة على ما تغنى فخلعنا على قفاه النعالا

(١) طبقات الشعراء ، ص ، ٣٧١.

(٢) العقد الفريد ٦/ ٨٣- ٨٤ .

٥ - "قُرب "المغنية :

وقال الحمدوي في جارية اسمها "قُرب" يصف نتن إبطها[١] :

قــل لهـا لاتُمَرْتِكيــه فمــا ينـ فـع ضرب بالطبل تحت الكساء
كيف يخفى وقد تبقع في النَّيْـ فَقِ منــــه كالمــرة الســـوداء

د - سخريته من البخل والبخلاء :

فاض المال في عصر بني العباس، وكثر البخلاء ، وهم معظم التجار "ومعلوم أن البخل والنظر في الطفيف مقرون بالتجارة ... والتجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق والتدقيق."[٢] ولقد كان الحمدوي حنقاً على البخلاء ، عالماً بسرائرهم، وخبيراً ببواطنهم، ومولعاً بالبحث في تفاصيل حياتهم، وتلقط سقطاتهم، حتى لا تكاد تخفى عليه لطيف حركاتهم ، والبخل داء الرجولة العياء الذي لايحتمله الناس وخاصة الشعراء الذين عرفوا بالتكسب وانتظار الجزاء الجزيل على بضاعة المديح، وفي الحياة العباسية تنامى هجاء البخل، وقلَّبه الشعراء على كل وجه، وأبدعوا في التندر بالبخلاء والسخرية منهم، ويكفي أن الجاحظ خصهم وحدهم بكتابه الرائد "البخلاء"، ولقد كان الحمدوي أحد الشعراء الذين عنوا بهذا الداء الاجتماعي في شعره، فراح يذكر الباخلين ويتفنن في تصويرهم ورصد حركاتهم، ومشاعرهم، مدققاً في بيان عيوبهم، والدلالة على قبائح تصرفاتهم، في صور مضحكة، فهاهو يسخر من أحدهم وقد أقبل مزهواً بخبزه ؛ الذي جمع كل صفات السوء، فهو حامض، صغير ، خفيف الوزن حدَّ التطاير من نَفَس الآكلين ! [٣]:

(١) كتاب **التشبيهات** ، ص ٣٨٦ ، نَيْفَقُ القميص والسراويل: معروف، وهو فارسي معرب، وهو المُنَفَّقُ، وقيل: النَّيفَقُ دخيل، نيفق السراويل. قال الجوهري: و نيفق السراويل الموضع المتسع منها، والعامة تقول نِيفَق، بكسر النون . **لسان العرب** ١٠/ ٣٦٠ .

(٢) **ثمار القلوب**، ص ١١ .

(٣) **محاضرات الأدباء** . الراغب الأصفهاني -- بيروت : دار الآثار ، ص ٧٠٥ .

أتانا بخبز لـــه حامـــض شبيـه الدراهـم فـي حليتـه
يضـــرس آكلـــه طعمـــه وينشبُ في الحلق من خشنته
إذا ما تنفست عند الخوان تطاير في البيت من خفتـــه
فنحن جلوس معـا كلنـــا نداري التنفس مـن خشيتــه

وأما أبو زرارة البخيل فإن الحمدوي يجمع إليه مع البخل عقوق الوالدين وهو ما لم يسبقه أحد إليه ، حين يبخل بطعامه على والده الشيخ الكبير ، ويزيد الحمدوي سخريته فيجعل أبا زرارة في سياق حواري يعنف حاجبه على إدخاله الغرباء ليطعموا من خوانه ، فيستجيب الحاجب ويستثني أبا أبي زرارة وهو يشتمه امام ابنه أبي زرارة لعلمه أنه إنما يفعل ذلك غيرة على الطعام ، ولكن أبا زرارة - في سخر متنام يبدع الحمدوي في تصويره - يعلن لحاجبه وهو مدفوع بغريزة البخل أن الحب الأول والأخير والمكانة التي تحتل كل فؤاده إنما هي للطعام ، وأن الأب والإخوة وكل أحد هم في أخس المنازل حين الطعام ، منزلة الكلب ، ويختم بحكمة خالدة تصلح شعاراً لحياة أبي زرارة : ليس أقبح من خوان - لأبي زرارة بالطبع - يلتف حوله الآكلون . فكأن الحمدوي يقدم مزيجاً من السخرية غير مسبوق ، بالغ الإيلام، فالبخيل يبخل على أبيه ، ويحث حاجبه عليه ، ويسقط الحقوق لأجله ، ويتخذ البخل شعاراً (١) :

رأيـتُ أبـا زرارة قـــال يومـــاً لحاجبه وفي يـده الحســامُ
لئن وضع الخوانُ ولاح شخصٌ لأختطفن رأسـك والسلامُ
فقال سوى أبيك فذاك شيـخٌ بغيض ليس يردعـه الكلامُ
فقام وقال من حنـــق إليـــه ببيت لم يرد فيـه القيـــامُ

(١) **ربيع الأبرار** ، ص ٨٠٣ .

أبي وابنا أبي والكلبُ عنـــدي بمنزلة إذا حضرَ الطعــامُ
وقال له ابن لي يا ابن كلــبٍ على خبري أصادَرُ أم أضــامُ
إذا حضرَ الطعامُ فلا حقــوقٌ علــيَّ لوالــدي ولا ذمــامُ
فما في الأرض أقبح من خوان عليه الخبز يحضرهُ الزحامُ

ومن البخلاء الذين سخر منهم شاعرنا : أبونوح ورغيفه ، وقد جعل الحمدوي رغيف أبي نوح أسطورة في البقاء على اختلاف الأزمان وتعاقب الأجيال ، كيف لا وهو يعهد به لخادم ترعاه رعاية الوليد ، تمسحه بكمها ، وتقيه بنفسها ، وتنفث عليه بآي الذكر المجيد(١) :

لأبي نوح رغيــفٌ أبداً في حجر دايه
برَّةٌ تمسحه الدهـ ـر بكــمٍّ ووقايــه
وله كاتب ســـر خط فيها بعنايــه
فسيكفيكهم الله إلى آخــر الآيــه

هـ - سخريته من الثقلاء :

من السمات الظاهرة للعصر العباسي شيوع خفة الروح، ولطافة الظل، ومرح الطبع والخفة والرشاقة، والتعامل بظرف ورقة، وفشت ثقافة الظرف والتظرف، وأسماء الظرفاء وأخبارهم ونوادرهم، وكأن العصر وأهله يتناسب وطبيعة الحياة المدنية المترفة، المزخرفة بكل لون ، ومظاهر الزينة، والتأنق في اللباس والمآكل والمشارب والمنازل ، وحمد في المنادم أن يكون خفيف الظل ، سمح الخلق ، منبسط النفس.

وأفضت ثقافة الظرف وخفة الظل رقة في مشاعر علية القوم ، ومنادميهم من الأدباء والجلساء ، وتولدت أعراف من التهذيب وحسن المنادمة قارة في تلك

(١) المحاسن والأضداد، ص ١٣٢ .

الأوساط ، فرقت مشاعرهم وعلت أخلاقهم ، فهم يرون كل خدش - وإن صغر - غلظة في الطباع ، وثقلا في الروح ، واتخذوا أي خروج على تلك الثقافة مناسبة مواتية للسخرية والإضحاك ، فاختص الثقل والثقلاء بنصيب وافر من المتن الأدبي في العصر العباسي شعراً ونثراً ، وعلى نحو من الاختراع والتفتيق عجيب ، فترى السخرية آخذة برقاب سخريات أخر ، في توالد لاينتهي ، ومرواحة بين التأنيب والتجريح، واللوم والتقريع، فلا يَدَعوا الضحية إلا وهي مسخ مشوه ، يثير الضحك والازدراء ، حتى قال بشار العقيلي في ثقيل يسمى بأبي عمران [1] :

ربما ثقل الجليس وإن كا   ن خفيفاً في كفة الميزان

ولقد قلتُ إذا ظلَّ على القو   م ثقيلاً يربى على ثهلان

كيف لا تحمل الأمانة أرض   حملت فوقها أبا عمران

وأما شاعرنا الحمدوي فإنه لايعد ثقيله من الناس، وإن خدعهم في مظهره الآدمي، ويمعن صاحبنا في السخرية حين يبالغ كعادته، فإنه حين أراد أن يصف ثقل هذا الثقيل عمد إلى جعل "إبليس" الذي هو رمز لسوء الخلق، وانتهاك الحرمات، وإمامة الفسق متصفاً بصفات حسن الخلق والعفاف، فهو يغض بصره عن ذلك الثقيل ، ولكنه في حقيقة الأمر لايغضه تعبداً أو تعففاً وإنما استثقالاً له، وبرماً به، ثم إن الحمدوي في لطيف من الصياغة ، وبصرٍ بالبلاغة يُظهر أن صنيع "إبليس" في غض بصره عن ، هذا الثقيل قد شاع حتى تناقله الناس وهو ما يوحي به قوله "أنبئت"[2]:

في حر أم الناس إن   كنتَ من الناس تعد

ولقد أنبئت إبليس   إذا رآك يصـــــدُ

(١) انظر : **العقد الفريد** ٢/ ١٤٧ .

(٢) المرجع السابق ٢/١٤٤ .

وأما الثقيل الآخر البغيض بن البغيض فهو ثقيل بغيض من نسل بغضاء ، كابراً عن كابر ، وفي سخرية بالغة يستحلف الحمدوي بغيضه في هزل ظاهره الجد: أيبغض نفسه إن كان عاقلا أم هو أحمق في الحالين ، إن كان يحبها أو حتى كان على الحياد في مشاعره !! ، ولاينسى الحمدوي في درب السخرية أن يذم البغيض بما يشبه المدح في قوله : "ومن هو في البغض لايلحق " ، ولا بأس من شتيمة عابرة أخرى لكنها مؤلمة في قوله : "وعلمي بأنك لاتصدق " ،فترى السخرية تتوالد وتتعاقب في تنام مطرد [1] :

أيا بن البغيضة وابن البغيض   ومن هوَ في البغض لا يلحقُ
سألتك بالله إلا صدقتَ   وعلمي بأنك لا تصدقُ
أتبغضُ نفسك من بغضها   وإلا فأنت إذاً أحمق

و - سخريته من التطفيل :

ويكمل عقد السخرية الحمدوية حين يسخر صاحبنا من التطفيل والمتطفلين ، ضحايا الشره ، فقد شاع التطفيل في المجتمع العباسي، وكثر المنهومون بالأطعمة والولائم ، يحضرونها دونما دعوة إليها ، ويكثرون في الأعراس ، وهم فئة تنسب إلى "طفيل" واسمه : عبدالله بن غطفان ، من أهل الكوفة وكان أطلب أهل عصره للولائم والأعراس حتى قيل له: "طفيل الأعراس "[2] .

ويصور الحمدوي ببراعة حيل الطفيلي ليبلغ مراده ، فهو يطرق الدار كما هي أقدار الله - وياله من تشبيه لطيف - التي تحدث كل ليلة ، ومهما رام الحجّاب

(١) المصدر السابق نفسه ٢/١٤٤ .

(٢) انظر : **أخبار الأذكياء** . ابن الجوزي ؛ تحقيق بسام الجابي - ط١ - بيروت : دار ابن حزم ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م ص ٢٣٨ .

صده ، فهو يروغ منهم ويحقق مبتغاه ، فينتقل من حُجة استرداد نعل إلى أكل خوان ، ولا يكفيه صنيعه ، بل يتأبط الباقي لزوجه ! [1]:

أراكَ الدهر تطـــرق كــل دار   كأمر الله يحدثُ كل ليلــه
فإن غلظ الحجابُ وكانَ صعباً   ولم تقدر هناك على دخيله
أخذت لكي تخاطبهم خـلالاً   وقلت نسيت عندكم نعيلــه
فتلتهم الخـــوان بما عليـــه   وتبدرهم إلى بيض البقيله
وتأكل أكل ميســـرة وأيضـــاً   فلا بد لعرسك مـن زليلــه
وأنت بفضل حذقك ذا طفيلٌ   وتلك بما تُـزلُ لها طفيله

ز - سخريته من نفسه :

ولايستثني الحمدوي نفسه من السخرية ، فهاهو يحاجُّ من يلومه على الحماقة ، فندرك أنه يتحامق في سخرية مرة من صروف الدهر ، وانقلاب الأوضاع، فالحمق يطعم العيال ، والعقل يميتهم ! ومن هذه النظرة الفلسفية ندرك عمق رؤية شاعرنا للحياة الاجتماعية في عصره [2] :

عذلوني على الحماقة جهلاً   وهي من عقلهم ألذُّ وأحلى
حمقي اليوم قائمٌ بعيالـي   ويموتـونَ إن تعاقلــتُ ذلا

ويمتد الموقف الفلسفي السابق إلى سخرية الحمدوي من زمنه وسوء حاله، في رصد دقيق لطبقية المجتمع العباسي، حيث الطبقتان: ذات الشارة التي تستمتع بمتع الدنيا ولذائذها ، والجمهور الذي يكتفي بالفرجة على "ذات الشارة"، ولكن الحمدوي لايغادر موقفه هذا حتى يختمه بسخريته التي يستمدها من علم الكلام حين يجعل ذلك الجمهور

---

(١) **ثمار القلوب** ، ص ١٩ .
(٢) **غرر الخصائص الواضحة** ، ص ١٢٨ .

لفظاً بلا معنى، وهو ما يعني - وفق مبدأ المخالفة - أن "ذات الشارة" لفظ له معنى(١):

من كانَ في الدنيا له شارة فنحن من نظارة الدنيا
نرمقها من كثب حسرة كأننا لفظ بلا معنى

وقد يفقد صاحبنا قوة الاحتمال فتنطلق سخريته على سجيتها فيعمد إلى الشتم الصريح ، فهو لايفلح في لجمها حين يرى الرجال من "ذوي الشارة" يركبون الفاره ، ويتسامون على الناس ، وقد كانوا الأراذل، ولما كانت المحاجة ديدن الحمدوي فإنه يتلبس بالموضوعية والإنصاف فيدعو الله أن يلحقهم بذوي الشارة ، أو يساوي بين الجميع ، فالعدل في الحرمان عدل !! (٢) :

تسامى الرجالُ على خيلهم ورجلي من بينهم حافيه
فإن كنتَ حاملنا ربنا وإلا فأرجل بني الزانيه

ثالثا - خصائص سخريته :

في مكنة الناقد حين يعيد النظر في مقطوعات الحمدوي أن يرصد عدداً من الخصائص التي يتوصل بها للسخر ، وهي خصائص تظهر فيها بجلاء موهبته الشعرية ، وثقافته الأدبية ، وقدرته على تشقيق المعاني واختراعها ، وابتكار الصور ، والإفادة من العلاقة الراسخة بين الشعر والمبالغة التي تحسن في غرض كالسخرية، ومن أهم خصائص شاعرنا في نصوصه الساخرة :

١ - التصويرية :

لاتقتصر سخرية الحمدوي على المعاني الأول التي يعمد إليها ، بل هي تتضمن ظلالاً وألواناً، وخيالات وإيحاءات، تكشف عن دقائق المعاني أو المعاني

(١) زهر الآداب ١/ ٥١٣ .
(٢) المحاسن والمساوئ ١/ ٤٥١ .

الثواني ، وتمتد بها إلى دوائر لا تحد من الاتساع، فالطيلسان الذي يرفوه الناس عادة ، يتجاوزه الحمدوي إلى رفو الرفو نفسه ، وإلى رقع رقعه ، ويتنامى الأمر بشاعرنا فيصور الطيلسان كائناً حيّاً له إرادة فيتأبى على رفّائه ، وبحسن ذائقته يختم الحمدوي مقطوعته بمعنى ظريف إذ جعل الطيلسان يوهم من رأى شاعرنا أنه من أهل المسألة بعد أن أشبههم في لباسهم[1] :

طيلسانٌ رَفوتهُ ورَفوتُ الرَ فوَ منهُ وقد رقعتُ رقاعَه
فأطاعَ البلى فصارَ خليعاً ليسَ يُعطي الرَفاءَ في الرَفو طاعه
فإذا سائلٌ رآنيَ فيهِ ظنَّ أني فتىً مِنَ أهلِ الصناعَه

وانظر إليه يصور نفسه ساخراً منها حين يحاذر من الخوف على الطيلسان فهو كالسامري ، ولتكتمل أجزاء الصورة الساخرة ، فإنه يناشد ابن حرب أن يشتري عجلاً أو يبعث بالمال في تخيير أشد سخرية فعسى معجزة الإحياء تتكرر مع هذا الطيلسان الهالك فيحيا بإذن الله إذا ضرب بعظام العجل كما أحيا قتيل بني إسرائيل ، وهنا نتبين القدرة التصويرية الساخرة التي يمتلكها الحمدوي حين يجمع بين هذه المعطيات التي لاجامع بينها في بدء النظر : طيلسان - سامري - عجل ، وهو ما يدل على سعة خيال الحمدوي ، وحسن تأليفه للصور الشعرية[2] :

طيلسانٌ لابن حَربٍ جاءَني قد قضى التَمزيقُ مِنهُ وَطرَه
أنا مِن خَوفٍ عَليهِ أبَداً سامِريٌّ ليسَ يألو حَذرَه
يا ابنَ حَربٍ خُذهُ أو فابعث بما نَشتَري عِجلاً بصفرٍ عَشَرَه
فلعَلَّ اللهَ يُحييهِ لنا إن ضَرَبناهُ ببَعض البَقَره

(١) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٨ .

(٢) **جمع الجواهر** ، ص ١٥٦ .

ويبدع الحمدوي فإذا تصويريته ناطقة تضج بالحركة[1] :

كـأن كعبـــــيَّ إذا انضمتـــــا عليه خـوف الريح فـي غـــل

وهاهو يصور ابن سالم المغني فكأنما هو متجسد أمامنا يتغنى بصوته النفور، فيكون جزاؤه الضرب بالنعال على قفاه[2] :

بينما نحنُ سالمونَ جميعاً إذا أتانا ابنُ سالم مختالاً

فتغنى صوتاً فكان خطـاء ثم ثنى أيضاً فكان محالا

سالنا خلعة على ما تغنى فخلعنا على قفاه النعـالا

و مثل تصويره شاة سعيد وقد بلغ بها الجوع كل مبلغ[3] :

لسعيــد شويهـــة نالها الضرُّ والعجـف

فتغنـت وأبصــرت رجلاً حامـلاً علــف

ولأجل العلف " الحلم " تفدي حاملَه بأبيها :

بأبـي مـن بكفـــه برءُ دائي من الدنـف

وتقبل عليه مستشرفة نوال المراد :

فأتاهـــا مطمعـــاً وأتتـــه لتعتلــــف

فيفجعها مولياً ولا تجد إلا الغناء سلوة :

ثم ولــى فأقبلــت تتغنــى مـن الأسـف

ليتهُ لم يكن وقف عذبَ القلبَ وانصرف

---

(١) **كتاب التشبيهات** ، ص ٢٤١ .

(٢) العقد الفريد ٦/ ٨٣ - ٨٤ .

(٣) **جمع الجواهر** ، ص ٣٥٦ .

ولكن ليس في الغناء ولا غيره سلوان عن العلف :

تخنقها العبرة إن مرت بأصحاب العلف

كم قد تغني ولها شوق إليه ولهف

وقد تقطعتْ إلى وجهك شوقاً وأسف(١)

وقد فطن الحمدوي إلى أن التصوير الساخر في الشعر لا يلتقي ومقاييس الضبط ومراعاة النسب، وتلاؤم أجزاء الصورة، فهو يصور موضوعاته لا كما هي في الواقع، بل يبطل تناسبها، ويعبث بأجزائها، فيكبر بعضها ويصغر بعضها، ويتخذ من بعضها بؤرة تصويرية يسلط عليها أداته الشعرية حتى تطغى على سائر الأجزاء، وقصد الحمدوي في هذا التضخيم العيوب والمساوىء، وإبراز النقائص والمعايب، وبذلك يحصل "توجيه انتباه القارىء في لمحات سريعة خاطفة إلى خصائص خفية، موجودة في الشخص كي يؤلف من جماع هذه الخصائص المعروضة صورة تدعو إلى الإعجاب"(٢) .

كما في زعمه أن الطيلسان كاد يودي بجسمه وكأنما الحمدوي الزمن الذي أودى به(٣) :

يا طَيلسانَ ابنَ حَربٍ قد هَمَمتَ بأن تودي بجسمي كَما أودى بكَ الزَمَنُ

ما فيكَ مِن مَلبَس يُغني وَلا ثمَنٍ قد أوهَنَت حيلتي أركانُكَ الوُهُنُ

وتبدو السخرية البالغة حين يصور الحمدوي مكثه عند الرفاء للرفو على أنه ارتهان مدى الدهر(٤) :

---

(١) انظر : المقطوعة كاملة في **جمع الجواهر** ، ص ٣٥٦ .

(٢) **أبو حيان التوحيدي** . إبراهيم الكيلاني ٠- القاهرة : دار المعارف، ١٩٥٧م ، ص٦٩ .

(٣) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٠٣ .

فلو تَراني لدى الرَفاء مُرتَبطاً كأنَني في يَدَيه الدَهرَ مُرتَهَنُ
أقولُ حينَ رَآني الناسُ ألزمُـهُ كأنما ليَ في حانوته وَطَــنُ
مَن كانَ يسألُ عَنّا أين مَنزلنـا فالأقحُوانَةِ منا مَنزلٌ قمَـنُ

ولقد كان الحمدوي مبدعاً في تصوير نماذجه الساخرة، فيعد لها القوالب الشعرية المناسبة بحراً وقافية، ميالاً إلى تشويه صورها الحقيقية من خلال التلاعب بأبعادها وصفاتها .. وآليات الحمدوي في التصوير الهزلي: تكبير المنظر وتضخيمه، ولذا فهو يلتقط الصفة الذميمة فيضخمها حتى تبدو قماءتها في أكبر صورة وأبين حال ثم يتعاظم السخر عنده بتعدد تلك الملتقطات القبيحة وتتراكم شناعتها فيتحقق الهزء بها، ويحصل الإضحاك منها. كما في تصويره حال بخيل أطعمهم خبزاً جمع صفات السوء كلها[1]:

أتانا بخــبز لـه حامــض شبيــه الدراهــم فــي حليتــه
يضــــرس آكلــه طعمـــه وينشبُ في الحلق من خشنته
إذا ما تنفست عند الخوان تطاير في البيت مـن خفتــه

ثم يصور الحمدوي وصحبه ببراعة كيف داروا أنفاسهم كي لايتطاير الخبز :

فنحن جلوس معا كلنا نداري التنفس من خشيته

٢ - أنسنة الأشياء :

من أبرز خصائص الحمدوي في سخريته أنسنته رموز سخريته ، وبث الحياة في جوامدها، وبعث الحركة في سواكنها ، وإسباغ صفات الكائن الحي عليها، كما في حديثه عن رمزه الأول في السخرية : "الطيلسان" الذي استحال إنساناً من كثرة الصفات التي منحها الحمدوي له، فالطيلسان يغني[2]:

كَساني ابنُ حَربٍ طَيلَساناً كَأنَّهُ فتىً عاشقٌ بالٍ مِنَ الوَجدِ كَالشَنِّ

(١) محاضرات الأدباء ، ص ٧٠٥ .
(٢) ثمار القلوب ، ص ٦٠٣ .

يُغني لإبراهيمَ حينَ لبستُهُ ذهَبتُ منَ الدُنيا ومَا ذهَبت مِني

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبت مني هوى الدهر لي عنا وولى لها عني

ويحالف الرفاءَ محاولاً أن يأخذ عنه الصنعة ، فيرفو نفسَه بنفسه[1] :

لقد حالفَ الرَفاءَ حَتى كأنَّهُ يُحاولُ مِنهُ أن يُعَلمَهُ الرَفوا

وهو طيلسان مؤمن يسبح لربه[2] :

فإذا ما لبستُهُ قالَ سُبحانَكَ مُحيى العظام وَهيَ رَميمُ

ويستدل على الرفاء وحده[3] :

طال ترداده إلى الرفو حتى لو بعثناه وحده لتهدى

وهو طيلسان معمر قد أدرك القرون الأولى[4] :

فهوَ قد أدرَك نوحاً فعَسى عندَهُ مِن علم نوح خَبَره

وحين الحاجة فإنه يحذر الآخرين من مسه[5] :

طيلسان لابن حرب يتداعى "لا مساسا"

وله الحق في التملك كالبشر سواء بسواء[6] :

كأنه من طول رفقي به يملكني مذ صار في ملكي

وبمجمل من القول غدا الطيلسان عند الحمدوي بشراً سوياً له مشاعر

(١) **وفيات الأعيان** ٧/ ٩٦ .

(٢) **جمع الجواهر** ، ص ١٥٧ .

(٣) **طبقات الشعراء** ، ص ٣٧٠ .

(٤) **زهر الآداب** ، ص ٥٢٥ .

(٥) المرجع السابق ٢ / ١٠٤٨ .

(٦) كتاب **التشبيهات** ، ص ٢٤١ .

وأحاسيس ، يذهب ويجيء ، ويستدل على مقاصده ، وهو بيِّن الحديث ، يحسن بث الشكوى ، بل يعلم ويتعلم !! .

وشاة سعيد هي الأخرى تغني وتبكي[1] :

مرت على علف فقامت لم ترم عنهُ وغنت والمدامع تسجمُ

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخرُ عنه ولا متقدمُ

وحين يشتد بها الخطب تناشد مناشدة الحبيب القريب[2] :

قرَّبَ الناسُ الأضاحي وأنا قربتُ شاتي

كلما أضجعتها للذ بح قالت بحياتي

وتراجع الناس القول وتعظهم ، وتحثهم على ما هو خير[3] :

فإذا الملا ضحكوا بها قالت لهم لا تهزأوا بي وارحموني ترحموا

وتخنقها العبرة كالإنسان المحروم[4] :

تخنقها العبرة إن مرت بأصحاب العلف

وستغضب يوماً فتبصق في وجه المضحي بها[5] :

ستراهن كيف يبصقن في وجه المضحي بهن يوم الحساب

والحوت يدعو ربه شاكياً ذاك الثقيل[6] :

مشى فدعا من ثقله الحوت ربه وقال: إلهي زيدت الأرض ثانيه

(١) جمع الجواهر ، ص ٣٥٥ .
(٢) ثمار القلوب ، ص ٣٧٦ .
(٣) جمع الجواهر ، ص ٣٥٥ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٣٥٦ .
(٥) كتاب الوافي بالوفيات ٩/ ٧٦ .
(٦) زهر الآداب١/ ٤٤٢ .

٣ - المنطقية والتفلسف :

يتخذ الحمدوي من الاستدلال المنطقي، والاحتجاج العقلي سبيلا لإثبات سخريته وتأكيدها وتنميتها، فهو لا يكتفي بالاستنتاج أو الإدعاء ،بل يعمد إلى المقاييس المنطقية، والأدلة العقلية، والتعليلات الجدلية؛ ليثبت صحة استنتاجه، وصواب سخريته في حقيقة الأمر ، بالرغم من أن الحمدوي شاعر ساخر، يتخذ من المرح والفكاهة سبيله إلى الهزء والإضحاك، غير أنه قد يغلف سخريته بالجد الذي يوحي بالصرامة والحكمة، وهو في ذلك إنما يولد السخرية من رحم غير رحمها، فيصدع بنظرة حكيمة، وفلسفة عميقة في بيت من الشعر أو موضوع اعتاد أن يقيمه على السخرية والهزء ، ولا سيما مع شيوع الفلسفة وعلوم الحكمة في عصره ، ومن ذلك دوران مصطلحات أهل المنطق والفلسفة على لسانه ، ومن ذلك "العرض" في قوله(١) :

فلو أنَّ أصحابَ الكَلام يَرَونَـهُ   لمارَوكَ فيهِ وادَّعوا أنـهُ عَـرَض

و" اللفظ " و "البهتان " في قوله(٢) :

طيلسانٌ لو كانَ لفظاً إذاً مـا   شكَّ خلـقٌ في أنـه بهتـانُ

ويستخدم القياس(٣) :

فحَسبنا نسجَ العَناكبِ لو قيـ   سَ إلى ضُعف طيلسانِكَ سَدّاً

وقوله(٤) :

غاب تحت الحس حتى   لا يـرى إلا قياسـا

(١) **جمع الجواهر** ، ص ١٥٦ .

(٢) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠١ ، **ووفيات الأعيان** ٧ / ٩٧ .

(٣) **طبقات الشعراء** ، ص ٣٧٠ .

(٤) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٨ .

ويأخذ بالمقارنة العقلية[١]:

إن أزينه يا ابنَ حربٍ بذمي   فجريرٌ قد زانَ قبلي بجيله

ويطلق ثم يستدرك[٢] :

هُوَ لي وَلكنَّ البلى أولى بهِ   مِني فما يُبقي عَليَّ وَلا يَذر

أو يعلل حيناً[٣] :

وما ذاك إلا أنه متهتك   يخلي سبيل الريح غير منازع

ويعكس العلائق المنطقية فيعبث بالأسباب ومسبباتها ،فإذا الجوع سبب للتخمة ، والعدم سبب لليسر[٤]:

إذا بات سكران من حبها   وأصبح من جوعه متخم

فيا لك من عاشق مفلس   أخي صبوة موسر من عدم

ويتساءل التساؤل العقلي المبطن بالاستنكار[٥] :

يا ابنَ حربٍ فكيفَ يبقى على البذ   لة ثوبٌ يذوبُ وهوَ بُصانُ

ويربط بين المقدمة والنتيجة وفق الاستنتاج العقلي[٦] :

وأنت بفضل حذقك ذا طفيلٌ   وتلك بما تُزلُّ لها طفيله

---

(١) المرجع السابق ٢ / ١٠٤٧ .
(٢) طبقات الشعراء ، ص ٣٧٠ .
(٣) المحاسن والمساوئ ، ١/ ٩٧ .
(٤) طبقات الشعراء ، ص ٣٧١ .
(٥) وفيات الأعيان ٧ / ٩٧ .
(٦) ثمار القلوب ، ص ١٩ .

وهناك المحاجة العقلية والمراوحة بين الشرط والجزاء[١] :

فإن كنت حاملنا ربنا والا فأرجل بني الزانيه

وقوله[٢] :

لئن بَليتَ فكَم أبليتَ مِن أمُم تَترى أبادَتْهمُ أيّامُكَ الأول

كما أن من خصائص سخرية الحمدوي ألا يسخر من ضحيته سخرية مباشرة، بل يعرض لها في ثياب الموضوعية والإنصاف وفلسفة التساؤل، وادعاء التجرد، ويعمد إليها عبر مسالك المنطقية، ومن ذلك أنه ينادي طيلسانه ويسأله بتجاهل ساخر: أمرض السل أصابك فأحالك إلى هذه الحال أم هو داء الحب الذي لابراء منه، فأنت في مهاوي العشق والغرام ؟ [٣] :

أيا طَيلسانِيَ أعييَتَ طِبّي أسِلٌ بجسمِكَ أم داءُ حُبٍّ ؟

وأما شاة سعيد فيتعلل لها بمنطق معقول، واحتجاج مقبول، فمن المحال أن تبعر وهي لاتطعم، وبسخرية لاذعة يخطِّيء شاعرُنا أبا سعيد الذي ظن أن الشمس والقمر طعام صالح تتغذى به تلك الشاة الهزيلة[٤] :

وكيف تبعر شاةٌ عندكم مكثت طعامها الأبيضان الشمس والقمرُ

وفي مقطوعة أخرى نرى التساؤل الذي ظاهره البراءة ، وباطنه التهكم ، حين يلجيء الحمدوي البغيضَ بن البغيض إلى الاعتراف ببغض نفسه ، وإن لم يفعل فهو أحمق ، وهكذا تنشأ سخرية مركبة من المفارقة بين البغض أو الحمق ، فأنت أيها

---

(١) المحاسن والمساوئ ١/ ٤٥١ .

(٢) **زهر الآداب** ٢/ ١٠٤٦ .

(٣) المرجع السابق ١/٥٥٢ .

(٤) **جمع الجواهر** ، ص ٣٥٥ .

البغيض حين تبغض نفسك لا تأتي بدعاً من الأمر ، بل هو ما يمليه عليك العقل الرصين ، والنظر السديد[١] :

أتبغضُ نفسك من بغضها وإلا فأنت إذاً أحمـــق ؟

٤ - المبالغة والغلو :

تكاد السخرية تكون عند الحمدوي ذات أساس واحد في نهاية الأمر؛ هو المبالغة والغلو في التصوير أو الوصف، ولم يكن الحمدوي ليغفل المبالغة وهي معقد السخر حين يوقع المفارقة بين الشيء قبل المبالغة، وبعدها، ثم يصير مآلها إلى الإضحاك والهزء حيث مخالفة المعروف، والخروج على المألوف، وتجاوز الأعراف الاجتماعية والقواعد المرعية، فالمبالغة خروج عن "النص العقلي" الذي قد استقرت به الأشياء في الذهن، ودرب عليه الإدراك ، ويبدو هذا الخروج أوضح ما يكون في مبالغات الملامح وإظهارها للأعين مضاعفة ، مما يبعث على الضحك ويدعو إلى الزراية، وهو ما اعتاده الشعراء من المبالغة في وصف خلق الإنسان ، كالضخامة أو القصر أو الطول المفرط وملامح الوجه، والأنف ، والأسنان، والفم[٢] . ولذلك اتخذ الحمدوي المبالغة وسيلة لتضخيم الأشياء، وتهويل الأحجام أو تحقيرها وتصغيرها حد الضآلة، وإذا كانت الفضائل وسط بين مذمومين، فإن الحمدوي ينحو بتلك الأمور إلى أحد المذمومين. كما أن من أساليب المبالغة عنده إلباس الشخص غير لباسه، وإظهار الأمر على غير صفته ، ومن مبالغات الحمدوي زعمه أن الطيلسان قد فني ولم يبق منه سوى الرفو فهو على الحقيقة رفو ، وليس بطيلسان[٣] :

(١) **العقد الفريد** ٢/١٤٤ .

(٢) انظر: **سيكولوجية الضحك**، أحمد عطية الله٠- القاهرة : مطبعة عيسى الحلبي، ١٩٤٧م، ص٨٢.

(٣) **ربيع الأبرار** ، ص ٨١٦ .

يا ابنَ حربٍ لقد رفوناهُ حتى بقيَ الرفو وانقضى الطيلسانُ

ويبالغ فيزعم أنه أضعف من نسج العنكبوت[1] :

فحَسبنا نسجَ العَناكبِ لو قيـ سَ إلى ضُعف طيلسانكَ سَداً

وأن التنفس يشقه ، والتنحنح يقده[2] :

إن تَنفسَّتُ فيهِ ينشقُّ شقاً أو تَنَحنَحتُ فيهِ يَنقدُّ قدّاً

ويبالغ حدَّ الفتك فيزعم أن هذا الطيلسان يعلِّم البلى[3] :

يا ابنَ الحُسَين أما تَرى درّاعَتي سمَلاً تَردَّت بالبلى وتَدَرَّعَت

فيها مَنَ التّمزيق ما لو أنهُ مرَّت بها ريحُ الصبا لتقشَّعَت

تُحكي تَخرُّقَ طيلساني إنّها منهُ تَعلمتِ البلى فتَضَعضَعَت

ويعدي الثياب فتبلى[4] :

لا فرّجَ الرحمنُ عَنهُ إنهُ أعدى ثيابي كُلها فتَقطَّعَت

ويفوق الجبال صموداً وصلابة[5] :

فلتحمَدِ اللهَ الجبالُ فإنها لو قارَنتَهُ تَخَشَّعَت وتَصدَّعَت

ثم يبالغ في تصوير الإشفاق على الطيلسان فهو كالإشفاق على العرض! [6]:

كَأنَّ إشفاقي عَليهِ إذا غدَوا إشفاقي عَلى عِرضي

---

(١) طبقات الشعراء ، ص ٣٧٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٠ .
(٣) وفيات الأعيان ٧/ ٩٦ - ٩٧ .
(٤) المرجع السابق ٧/ ٩٦ - ٩٧ .
(٥) المصدر السابق نفسه ٧/ ٩٧ .
(٦) كتاب التشبيهات ، ص ٢٢٣ ، ووفيات الأعيان ٦/ ٩٣ .

ويبالغ الحمدوي ، بل يغلو في شأن الثقيل ، فإبليس يصد عنه ، وكأنه ليس من البشر المتوعدين منه بالغواية(١) :

فـي حـــر أم النـــاس إن كنتَ من النـاس تعـــد
ولقـــد أنبئـت إبليـــس إذا رآك يصـــــد

ويبالغ في رقة هذا الطيلسان ، وبليه حتى أن اللحظ يصدعه(٢) :

إنَّ ابنَ حَربٍ جادَ لي كاسياً بطيلسانٍ هَـرِمٍ قشعـم
يَصدَعُهُ اللحظ بإيماضِـهِ صَدعَ فؤاد العاشقِ المُغرَم

والعيون تحرثه(٣) :

إذا العُيـــونُ لحظنــهُ فكأنــهُ باللحـظ يُحــرثُ

ويبالغ في قدم الطيلسان فيزعم أنه أقدم من قوم نوح والقرون الأولى ، وأنه يورث جيلا بعد جيل :

قل لابن حرب طيلسا نكَ قومُ نوح منهُ أحـدث
أفنى القرونَ ولم يزل عَمَّن مضى من قبلُ يُورث

والدهر يفنى وهذا الطيلسان خالد على الدهر(٤) :

وَلي طَيلسانٌ إن تأمَّلتَ شَخصَهُ تَيقنتَ أنَّ الدَهرَ يَفنى وَينقرض

ومن لطائف مبالغاته أن الطيلسان قد أفنى أجيالا من الرفائين(٥) :

(١) العقد الفريد ٢/١٤٤ .

(٢) كتاب التشبيهات ، ص ٢٤٠ .

(٣) وفيات الأعيان ٧ / ٩٧ .

(٤) جمع الجواهر ، ص ١٥٦ .

(٥) وفيات الأعيان ٧ / ٩٧ ، والوافي بالوفيات ٩ / ٨٠ .

يا بن حربٍ كسوتني طيلساناً يزرع الرفو فيه وهو سباخْ
تستطير الغروز طولاً وعرضاً فيه حتى كأنهن رخاخ
مات رفاؤه ومات بنوه وبدا الشيب في بنيهم وشاخوا

٥ - التدرج والتقصي :

يعيد الحمدوي النظر متأملاً في كل معنى يقصده ، ويكثر الرجع فيه حتى ينفذ إلى باطنه وتفاصيله ، فيسبر أغواره ويستقصي أبعاده، ويقلبه في شتى الوجوه، وينظر إليه من كل الزوايا إلى أن يقف على كل خصائصه ودقائقه حتى لا يدع فيه فضلة ولا بقية، وهو في هذا يبحث عن المعاني النادرة فيستخرجها ويبرزها، ومن ذلك أنه أحال الطيلسان من ثوب فحسب إلى كائن حي لكثرة ما قلبه وأرهقه، موظفاً في ذلك التأويل والتفصيل ، والتقصي والتتبع، والتأمل والإحصاء، بالتصوير والتمثيل، والتشبيه وتنمية المعنى في تدرج لطيف ، فينتقل من الكل إلى الجزء ، ومن العموم إلى الخصوص، ومن الإبهام إلى الإيضاح ، فهاهو يتدرج في وصف البلى الذي أصاب الطيلسان وطول تردده على الرفاء حتى أنه لو بعث إلى محل الرفو لاهتدى إليه وحده[1]:

يا ابنَ حَربٍ كَسَوتَني طيلساناً مَلَّ مِن صُحبَةِ الزَمان وَصداً
فحَسبنا نسجَ العَناكبِ لو قيـ ـسَ إلى ضُعف طيلسانِكَ سَدّاً
إن تَنفَّستُ فيهِ ينشقُّ شقاً أو تَنَحنَحتُ فيهِ يَنقدُّ قدّاً
طالَ تَردادُهُ إلى الرَفو حَتى لو بَعَثناهُ وَحدَهُ لتهَدّى

وفي خطابه للثقيل يتدرج به من الوصف بالثقل والنسب للثقلاء إلى التفوق

(١) طبقات الشعراء، ص ٣٧٠ .

في الثقل إلى الرمي بالكذب إلى قمة السخرية حين يغريه بالحياد والمصداقية فيسلِّم بثقله ويعترف به حتى ينجو من تهمة الحمق وهي أعظم من تهمة الثقل[1] :

أيا بن البغيضة وابن البغيض ومن هوَ في البغض لا يلحقُ
سألتك بالله إلا صدقتَ وعلمي بأنك لا تصدقُ
أتبغضُ نفسك من بغضها وإلا فأنت إذاً أحمق

ومن ينظر في سخريته من شاة أبي سعيد يرى كيف يستقصي السخرية بكل شؤونها ؛ بشكلها وهيئتها وصوفها وعظمها ولحمها[2] :

بشاة سعيد وهي روح بلا جسم تمثلت الأمثال في شدة السُقم
يقولُ لي الإخوانُ لما طبختها أتطبخ شطرنجاً عظاماً بلا لحم
فقلت كلوا منها فقالوا تجمزاً أتطعمنا ناووس قوم من العُجم
فقلتُ لهم كانت لديهم أسيرة ترى القتّ في أيدي العدو وفي الحُلم
وكم قد تغنت إذ تطاولَ جوعُها ولم ترَ عندَ القوم شيئاً منَ الطعم
ألا أيها الغضبانُ بالله ما جُرمي إليك فقد أبليت لحمي على عظمي

وانظر إليه كيف تدرج بحال المغني أبي سالم من الخطأ إلى المحال[3] :

فتغنى صوتاً فكان خطاء ثم ثنى أيضاً فكان محالا

٦ - الواقعية :

للواقع الذي يحيا فيه الشاعر أثر جد كبير في نتاجه الشعري بعامة، فهو يكاد يشكل شعره ، ويمده بسبل الإبداع فيه، ولقد حفل الواقع العباسي بصنوف

(١) العقد الفريد ٢/١٤٤ .
(٢) ثمار القلوب ، ص ٣٧٦-٣٧٧ .
(٣) العقد الفريد ٦/ ٨٣- ٨٤ .

اللباس والثياب، وتعددت أنواع الطيب والعطور، وحفلت الموائد بأصناف الطعام والشراب، وبالغ الناس في فنون العيش والملاذ، وغدت المدينة العباسية فسيفساء اجتماعياً يجمع شتى الآراء، حتى تجد فيها الشيء ونقيضه، فقد حفلت البيئة العباسية بالمذاهب والنحل كالصابئة والرافضة والمرجئة والزرادشتية، والمانوية، والجبرية والجهمية وغيرها، ولا ريب أن اصطراع هذه المذاهب فيما بينها تشيع الهجاء وتغذي السخرية وتنميها بين أصحابها همزاً ولمزاً ، كما ازدهرت الحياة العلمية، وكانت جوامع بغداد والبصرة جامعات للعلم يفد إليها الطلاب من كل فج، وبجوارها دكاكين الوراقين الحافلة بكتب العلماء. وأنشئت المكتبات العامة، والخاصة، وأشهر تلك المكتبات (خزانة الحكمة) في بغداد "وشغف الناس بالعلم ولعل ذلك ما جعل الجاحظ يحاول تقريب الثقافة إلى جماهير البشر حتى تتزود منها بطرق يسيرة سهلة"(١) . وكان الحمدوي في شعره إنما يساير عصره، ويصور مجتمعه، وأعانه على ذلك ميل نفسه إلى السخرية والإضحاك، فهو يلتقط النوادر، ويلم بالفكاهات، متفاعلاً مع كل ما يسمع أو يرى في حياة الناس، وهو بعد قادر على توليد الجديد، وتأليف العجيب المضحك. ولا ننسى أن الحمدوي نشأ في البصرة، الحافلة بشيوخ السخرية فقد كان أبو عبيدة معمر بن المثنى ت ٢٣١هـ فكه المجلس مولعاً بالتعريض والتلويح، والتهكم والسخرية، وكان إبراهيم بن سيار النظام مشهوراً بالدعابة والسخرية، وهناك ثمامة بن الأشرس ت ٢٢٣هـ، وأبو الهذيل العلاف ت ٢٣٥هـ، وأبو سعيد بن أوس الأنصاري ت ٢١٢هـ، والأصمعي ت ٢٩٣هـ وأبو الحسن الأخفش ت ٢١٥هـ .

وبمجمل القول فقد كانت البيئة العباسية حافلة بكل شيء وملأى بكل لون، تجمع المتناقضات: الغنى والفقر، التصوف والتهتك التعبد والطرب، مجالس العلم،

---

(١) **العصر العباسي الثاني** ، شوقي ضيف -٠ ط٨ -٠ القاهرة : دار المعارف ، (د.ت)، ص٦٤٣ .

ومجالس اللهو. ولقد كانت سخرية الحمدوي متصلة بطبيعته المرحة وانبساط نفسه، وبموقعه من الحياة، فهي سخرية لا تقوم على أمر عارض، أو لمجاراة أحد بل هي تنبع من ذاته، يحيا بها، دون أن يتورط في الهجاء المقذع ولا الشتم البذيء، وقصائده الساخرة صورة لمجتمعه العباسي فترى فيها الحديث عن المجالس والأكلات والعادات واللباس، والمغنين، والجواري، وطبقات المجتمع، وعيوب الناس. فهي تعكس واقع الحياة التي عاشها الحمدوي وتصور بيئته ، وتبين عن روح فكهة مرحة عابثة ساخرة، تميل إلى الدعابة، وترغب في العبث، تخلط الجد بالهزل، سخرية تستقصي المعاني وتدقق فيها ، وتطوع اللغة لصورها ، في مدد من الخيال، ومفردات من الواقع اليومي .

ولقد كان للبيئة ذلكم الأثر الكبير في الحمدوي ، وبخاصة حين نعلم أن موضوعاته التي أنشأ عليها سخريته إنما استقاها من بيئته تلك ، بعد طول معايشة، ومعرفة دقيقة بها، ونظر معاد في تفاصيلها، ومحال أن يكون هذا إلا باتصال مكثف بالبيئة ، ويضج المتن الشعري للحمدوي بواقعه الذي عاشه في البصرة من حيث الألفاظ ، والصور ، والموضوعات ، فتشبيهات الحمدوي وأوصافه مأخوذة من بيئته ، كما في وصفه للطيلسان ، والشاة ، والخبز ، والخوان، والرفو ، والرقاع ، والبصان ، والنعال ، والعلف ، والرغيف ، والخل ، والبقل ... وهي كلها مفردات مأخوذة من البيئة، وكذلك تشبيهاته وصوره البلاغية، فمن مفردات واقعه التي ذكرها في شعره:

البصان(1) :

يا ابنَ حربٍ فكيفَ يبقى على البذ   لة ثوبٌ يذوبُ وهوَ بُصانُ

---

(1) **وفيات الأعيان** ٧ / ٩٧ .

والعلف[١] :

تخنقهـــا العبـــــرة إن   مـرت بأصحـــاب العلـــف

وبيض البقيلة[٢] :

فتلتهـم الخـوان بمـــا عليــــه   وتبدرهم إلى بيض البقيله

والنعال[٣] :

سالنا خلعــة علـــى ما تغنـــى   فخلعنا على قفـاه النعــالا

والخبز[٤]:

فما في الأرض أقبح مـن خـــوان   عليه الخبز يحضرهُ الزحامُ

والرغيف[٥]:

لأبـي نـــوح رغيــــفٌ   أبداً في حجر دايــه

والشص[٦]:

كـــانَ دَهـــراً طيلسانـــاً   ثمَّ قد أصبَحَ شِصّـا

والخل والبقل[٧] :

وطيلسـان هـــرم يحتمـــي   عليه أكل الخــل والبقــل

(١) **جمع الجواهر** ، ص ٣٥٦ .

(٢) **ثمار القلوب** ، ص ١٩ .

(٣) **العقد الفريد** ٦/ ٨٣ - ٨٤ .

(٤) **ربيع الأبرار** ، ص ٨٠٣ .

(٥) **المحاسن والأضداد** ، ص ٥٩ .

(٦) **جمع الجواهر** ، ص١١٣ ، والشص : حديدة عقفاء يصاد بها السمك . انظر: اللسان ٧/ ٤٨ .

(٧) كتاب **التشبيهات** ، ص ٢٤١ .

وعلى مستوى الصور نجدها صوراً من واقع الناس وحياتهم ، كصورة الطاعمين حول الخوان(١) :

أتانا بخبز له حامض　　شبيه الدراهم في حليته
يضرس آكله طعمه　　وينشبُ في الحلق من خشنته
إذا ما تنفست عند الخوان　　تطاير في البيت من خفته
فنحن جلوس معا كلنا　　نداري التنفس من خشيته

وصورة من يرفو ثوبه في دكان الرفاء(٢) :

فلو تَراني لدى الرَفاء مُرتَبطاً　　كأنّني في يَدَيهِ الدَهرَ مُرتَهَنُ
أقولُ حينَ رَآني الناسُ ألزَمُهُ　　كأنما ليَ في حانوتهِ وَطَنُ
مَن كانَ يسألُ عَنّا أين مَنزلنا　　فالأقحُوانَةِ منا مَنزلٌ قمَنُ

وصورة الرجل يبادل صاحبه التحية(٣) :

يُسَلِّمُ صاحِبي فيَقدُّ شبراً　　بهِ وأقدُّ في رَدّي ذِراعا

وصورة التعلّم والتعليم(٤):

لقد حالفَ الرَفاءَ حَتى كأنَّهُ　　يُحاولُ مِنهُ أن يُعَلمَهُ الرَفوا

وصورة التعايش مع الناس(٥) :

وأراني صِرتُ أدنى　　بَعدَما قد كُنتُ أقصى
وَاتَقاني الناسُ وَازدا　　دوا عَلى شعريَ حِرصا

(١) **محاضرات الأدباء** ، ص ٧٠٥ .
(٢) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠٣ .
(٣) **وفيات الأعيان** ، ٧/ ٩٦ .
(٤) المرجع السابق ٧/ ٩٦ .
(٥) **جمع الجواهر** ، ص ١٥٣ .

وصورة خيوط الرفو وغرزه[١]:

تستطير الغروز طولاً وعرضاً   فيه حتى كأنهن رخاخ

وصورة إعداد الطعام ومحادثة الإخوان [٢] :

يقولُ لي الإخوانُ لما طبختها   أتطبخ شطرنجاً عظاماً بلا لحم

فقلت: كلوا منها فقالوا تجمزاً   أتطعمنا ناووس قوم من العُجم

٧ - الاختراع والادعاء :

ومن خصائص الحمدوي في سخريته: الاختراع والادعاء، وهي الصور البديعة المضحكة من خلال اختراع النوادر والنكت الملفقة وإضافتها إلى الضحية، واستحسن الثعالبي تلك المعاني البديعة المخترعة فقال عن مقطوعات شاعرنا : "وانثالت عليه المعاني حتى قال في وصف الطيلسان قرابة مئتي مقطوعة ولا تخلو واحدة منها من معنى بديع وصار الطيلسان عرضة لشعره ، ومثلاً في البلى والخلوقة ، والانخراط في سلك حمار طياب، وشاة سعيد ، وضرطة وهب ، وأير أبي حكيمة"[٣] . وفي الطيلسان قال الحمدوي غرة معانيه المخترعة التي عرف بها - حتى أنه نفسه فاخر بها - "قال الحمدوي: وأ نا ابن قولي في الطيلسان:

طال ترداده إلى الرفو حتى   لو بعثناه وحده لتهدى

أي أني عرفت به"[٤] .

(١) كتاب **الوافي بالوفيات** ٩ / ٨٠ .

(٢) **ثمار القلوب** ، ص ٣٧٦-٣٧٧ .

(٣) انظر : المرجع السابق، ص ٤٩٩ .

(٤) **الأغاني** ١٣٨/٢٠ .

ومن معانيه المخترعة المدعاة زعمه ملازمة الطيلسان للرفاء ليتعلم منه الرفو[1]:

لقد حالفَ الرَفاءَ حَتى كأنَّهُ   يُحاولُ منهُ أن يُعَلمَهُ الرَفوا

وزعمه أن الحوت في البحر يشكو ثقل ذلك الثقيل[2] :

مشى فدعا من ثقله الحوت ربه   وقال: إلهي زيدت الأرض ثانيه

واختراعه سبيل الاستدلال على قينة ذات صنان بتنشق ريحها[3] :

من كان لا يدري لها منزلاً   فقل له يمشي ويستنشق

وزعمه أن الطيلسان كان شراعاً لسفينة نوح دلالة على قِدَمه[4] :

فَلَستُ أشُكُّ أن قد كانَ دَهراً   لِنوحٍ في سَفينَتِهِ شِراعا

ومبالغته في خفة ذاك الخبز حتى أن التنفس يطيره[5] :

أتانا بخبز له حامض   شبيه الدراهم في حليته
يضرس آكله طعمه   وينشبُ في الحلق من خشنته
إذا ما تنفست عند الخوان   تطاير في البيت من خفته
فنحن جلوس معا كلنا   نداري التنفس من خشيته

وتشبيهه الطيلسان بالفتى العاشق المهزول[6] :

كَساني ابنُ حَربٍ طَيلَساناً كَأَنَّهُ   فتىً عاشقٌ بالٍ مِنَ الوَجدِ كَالشَنِّ

(١) وفيات الأعيان ٧/ ٩٦ .
(٢) زهر الآداب ١ / ٤٤٢ .
(٣) ثمار القلوب ، ص ١٠٧ .
(٤) زهر الآداب ١/ ٥٥٣ .
(٥) محاضرات الأدباء ، ص ٧٠٥ .
(٦) ثمار القلوب ، ص ٦٠٣ .

وتشبيهه خوفه على الطيلسان بخوفه على عرضه ، أو بمن يمرِّض من لا يُرجى برؤه [1] :

كــأنَّ إشفاقــي عليــهِ إذا غـدَوا إشفاقــي علــى عِرضــي

وقوله[2]:

كأني لإشفاقي عليهِ مُمَــرِّضُ أخو سَقم ممَّن تَمادى به المَرَض

ومن اختراعاته البديعة ادعاؤه أن الطيلسان إنما مُزق في مأتم لا كما يتمزق أمثاله من اللبس[3] :

أنظُــر إلــى كَثــرةِ تَمزيقــهِ كأنمــا مُــزِّقَ فــي مأتــم

ومنها أن اللحظ فحسب يصدعه ، وليس اللبس أو النظر المرجّع[4] :

يَصدَعُهُ اللحظ بإيماضِهِ صَدعَ فؤاد العاشقِ المُغرَم

وقوله[5]:

إذا العُيــونُ لحـظنــهُ فكأنهُ باللحظ يُحــرثُ

ومنها قدرته على عقد التشابه بين متباعديْن لا يتآلفان على البديهة ، كقوله يشبه الطيلسان بالكلب :

كالكلــبِ إن تَحمــل عليــه الدهرَ أو تتركه يلهــث

(١) كتاب التشبيهات ، ص ٢٢٣ ، ووفيات الأعيان ٦/ ٩٣ .

(٢) جمع الجواهر ، ص ١٥٦ .

(٣) كتاب التشبيهات ، ص ٢٤٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

(٥) وفيات الأعيان ٧/ ٩٧ .

وتشبيهه إياه بالسراب ، والقميص بالغيم(١) :

وطيلســـان كالآل يلبســـه على قميص كأنه غيـــم

وحيناً بالهشيم ، والجراد(٢) :

فإذا ما صحتُ فيهِ صَيحَـة تَركتهُ كهشيم المُحتـظر

وَإذا ما الريحُ هَبَّت نَحــوَهُ طَيَّرتَهُ كَالجَرادِ المُنتَـشِرِ

وأخرى بالطور المهدود(٣) :

فهوَ كالطور إذ تجلى لهُ اللـ ـه فهدت قواه والأركــانُ

وأخرى بخمر أبي نواس(٤) :

فكأنه الخمرُ التي وصفت في "يا شقيق الروح من حكم"

ومن معانيه المخترعة أن هذا الطيلسان قد أحوجه للحذر والتحوط ، فهو يتجنب الخلطة بسببه كأنما به جرح لايندمل(٥) :

أظلُّ أجتنبُ الإخوانَ مِن حَذرٍ كأنما بيَ جُرحٌ ليسَ يَندَمِلُ

وكأنه في حذره سامري(٦) :

أنا مِن خَوفِ عَليهِ أبَداً سامريٌّ ليسَ يألو حَذَرَه

---

(١) كتاب **التشبيهات** ، ص ٢٤ .

(٢) **زهر الآداب** ١/٥٥٢ .

(٣) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠١ ، **ووفيات الأعيان** ٧ / ٩٧ .

(٤) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠٣ .

(٥) **زهر الآداب** ٢/ ١٠٤٦ .

(٦) المرجع السابق ٥٢٥ .

ومن مبتدعاته اللطيفة تشبيهه رقاع الطيلسان بساكني مصر من حيث الكثرة واختلاف الأصول[1]:

غمرتهُ الرقاعُ فهو كمصر سكنته نزّاعُ كل قبيله

وتشبيهه كعبيه المضمومين على الطيلسان بالمقيَّدين[2] :

كأن كعبيَّ إذا انضمتا عليه خوف الريح في غل

وكما يحيل على المحسوسات فإنه يلم بالمعقولات ، ولكنه يوظفها للسخرية كعادته ، كقوله يشبه نفسه وكل العاثرين باللفظ الذي لامعنى له[3] :

نرمقها من كثب حسرة كأننا لفظ بلا معنى

وقوله يشبه ذلك الطفيلي بأمر الله من حيث طرقهما كل دار كل ليلة[4]:

أراكَ الدهر تطرق كل دار كأمر الله يحدثُ كل ليله

ومن مخترعاته أن صير الطيلسان أسير الله في أرضه[5] :

لو أنهُ بَعضُ بَني آدَمَ كانَ أسيرَ اللهِ في الأرض

وشراعَ سفينة نوح[6] :

أجيلُ الطَرفَ في طَرَفيهِ طولاً وَعَرضاً ما أرى إلا رِقاعا
فَلَستُ أشُكُّ أن قد كانَ دَهراً لِنوحٍ في سَفينَتِهِ شِراعا

(١) المصدر السابق نفسه ٢ / ١٠٤٧ .
(٢) **كتاب التشبيهات** ، ص ٢٤١ .
(٣) **زهر الآداب**، ١/ ٥١٣ .
(٤) **ثمار القلوب** ، ص ١٩ .
(٥) **كتاب التشبيهات** ، ص ٢٢٣ ، **ووفيات الأعيان** ٦/ ٩٣ .
(٦) **زهر الآداب**١/٥٥٣ .

وأن له قدرة على تعلم الرفو من كثرة ما لازم الرفاء[1] :

لقد حالفَ الرَفاءَ حَتـى كأنَّـهُ يُحاولُ منِهُ أن يُعَلمَـهُ الرَفوا

والطيلسان مثل آل فرعون من حيث العرض؛ هذا على الرفو، وأولئك على النار [2] :

فهوَ في الرَفو آل فرعَونَ في العَر ض عَلى النارِ غُـدوَة وَعشيا

ومن مخترعاته في المعاني تشبيهه الطيلسان بالبيت المعمى بجامع الخفاء في كل ، حين يقول[3] :

طيلسان كان رسما ثم قد أصبح وهما
لاتــراه العــين إلا بعد أن يهجع حلما
تتعب المقلة كي تــد رك منـه أثرا مـا
تعب الفكرة فـي إخـ راجها البيت المعمّى

رابعا - خصائص شعره:

ما كانت تلك المعاني الساخرة والدلالات المضحكة لتبلغ مبلغها عند الحمدوي لولا ما توافرله من قدرة أسلوبية وملكة بيانية يعبر بهما عن معانيه وصوره ، ومن أهم خصائص شعره :

١ - **الاقتباس** : وهو "أن يضمَّن الكلامُ شيئا من القرآن أو الحديث"[4] ، ولقد

(١) **وفيات الأعيان** ٧/ ٩٦ .

(٢) **طبقات الشعراء** ، ص ٣٧٠ .

(٣) **يتيمة الدهر** ، ص ٢٠٨ .

(٤) **الإيضاح في علوم البلاغة** . الخطيب القزويني ؛ تحقيق محمد فرهود وزميليه .- ط٦ .- بيروت : دار الكتاب المصري ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .، ص ٥٩٠ .

كان القرآن الكريم عيناً نضاخة يمتح منه الحمدوي ما شاء من الألفاظ والتراكيب والصور ، ومن اقتباسات شاعرنا قوله[1]:

وَمُستَخبرٍ خَبَرَ الطيلسانِ فقُلتُ لهُ :"الروحُ من أمر رَبي"

فقد اقتبسه من الآية الكريمة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[2] .

وفي قوله[3] :

طيلسانٌ لابن حَربٍ جاءَني قد قضى التَمزيقُ مِنهُ وَطرَه
أبَـداً يقـرأ مَـن أبصـرَه أإذا كُنـا عِظامـاً نَخِـرَه

اقتباس من الآية الكريمة : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾[4] .

وفي قوله[5] :

قل لابن حرب طيلسا نكَ قومُ نوح منـهُ أحـدث
أفنى القرونَ ولم يـزل عَمَّن مضى من قبلُ يُورث
إذا العُيـونُ لحظنــهُ فكأنـهُ باللحـظ يُحـرثُ
يـودي إذا لـم أرفـهُ فإذا رفوتُ فليسَ يلبـث
كالكلبِ إن تَحمل علي ـه الدهرَ أو تتركـه يلهـث

اقتباس من الآية الكريمة : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

---

(١) **زهر الآداب**، ص ٤١٠ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥ .
(٣) **جمع الجواهر** ، ص ١٥٦ .
(٤) سورة النازعات ، الآية : ١١ .
(٥) **وفيات الأعيان** ٧/٩٧ .

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١] .

ومن لطائفه أن يقتبس بعض الآية ويحذف بعضها ثقة بفهم المتلقي ، كما في قوله[٢] :

لأبـي نـوح رغيـفٌ	أبداً في حجر دايه
برَّةٌ تمسحـه الدهـ	ـر بكـــمٍّ ووقايـــه
ولــه كاتـب ســـر	خط فيها بعنايـــه
فسيكفيكهـم الله	إلـى آخـــر الآيـــه

فقد اقتبسها من قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[٣] ا .

وقد يكون اقتباسه متعدداً في المقطوعة الواحدة وهو ما يبين عن ملكة خاصة في توظيف النصوص القرآنية ، والقدرة على استحضارها كقوله[٤] :

طَيلسـانٌ لابن حَـربٍ جاءَنـي	خلعَة في يَوم نحس مستمر
فإذا ما صحتُ فيـهِ صَيحَـة	تَركتـهُ كهشـيم المُحتظـر
وَإذا مـا الريـحُ هَبَّـت نَحـوَهُ	طَيَّرتَـهُ كَالجَـرادِ المُنتَشِـر
مُهطعُ الداعي إلى الرافي إذا	ما رآهُ قـال ذا شـيءٌ نُكـر
وَإذا رَفـــاؤهُ حـــاوَل أن	يَتلافــاهُ تعاطـى فعَقـر

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٦.

(٢) المحاسن والأضداد ، ص ٥٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٣٧ .

(٤) زهر الآداب ١/٥٥٢ .

ففيها اقتباس من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾(١) ، ومن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾(٢) ، ومن قوله تعالى : ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾(٣) ، ومن قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾(٤) ، ومن قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾(٥) .

وقد يورد الحمدوي معاني القصة القرآنية دون ألفاظها ،كما في قصة السامري صاحب العجل(٦) :

طيلسانٌ لابن حَربٍ جاءَني قد قضى التَمزيقُ منهُ وَطرَه
أنا مِن خَوفٍ عليهِ أبَداً سامريٌّ ليسَ يألو حَذَرَه

فقد أخذها مما ورد في خبر السامري ، قال تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾(٧) .

وقوله(٨) :

يا ابنَ حَربٍ خُذهُ أو فابعث بما نَشتَري عِجلاً بصفرٍ عَشَرَه

وهو من قوله تعالى : وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ

---

(١) سورة القمر ، الآية : ١٩ .
(٢) سورة القمر ، الآية : ٣١ .
(٣) سورة القمر ، الآية : ٧ .
(٤) سورة القمر ، الآية : ٦ .
(٥) سورة القمر ، الآية ٢٩ .
(٦) **جمع الجواهر** ، ص ١٥٦ .
(٧) سورة طه ، الآية : ٨٥ .
(٨) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

يرَوْا أنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾[١] .

فلعَلَّ اللهَ يُحييهِ لنا   إن ضَرَبناهُ ببَعضِ البَقَره

وهو من قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٢] .

وقوله[٣] :

طيلسانٌ لو كانَ لفظاً إذاً ما   شكَّ خلقٌ في أنه بهتانُ

فهوَ كالطور إذ تجلى لهُ اللـ   ـه فهدت قـواهُ والأركـانُ

وهو بعض خبر موسى - عليه السلام - وتكليمه الرب - جل وعلا- على جبل الطور كما في سورة مريم : ٥٢ ، وسورة الأعراف : ١٤٣

وقوله[٤] :

طيلسان لابن حرب   يتداعى لا مساسا

وهو من قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ ﴾[٥] .

٢ - التضمين :

وهو "أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من بيت أو من آية أو من معنى مجرداً من كلام أو مثلا سائراً أو جملة مفيدة أو فقرة من حكمة"[٦] وقيل "أن يُضمَّن الشعرُ

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٧٣ .

(٣) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠١ .

(٤) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٨ .

(٥) سورة طه ، الآية : ٩٧ .

(٦) **تحرير التحبير** . ابن أبي الأصبع المصري ؛ تحقيق حنفي محمد شرف -. القاهرة : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥ م ، ص ١٤٠ .

شيئاً من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء"[1] ولعل هذا المسمى يصدق على تضمينات الحمدوي الذي أبدع في حسن تضمينه ، ومنه تضمين بيت الأعشى المشهور في قوله[2] :

لِطَيلسان ابن حَربٍ نِعمَةٌ سَبَقت   بنا تَبيَّنَ فَضلي فهوَ مُتَّصِلُ
وَكَم رَآكَ أخٌ لي ثمَّ أنشدَني   وَدِّع هُرَيرة إنّ الركبَ مُرتَحِلُ

ومنه تضمينه بيت أبي الشيص الخزاعي في شاة سعيد وذلك في قوله[3] :

مرت بقطف خضر ينشرها   قومٌ فظنت بأنها خضر
فأقبلت نحوها لتأكلها   حتى إذا ما تبين الخبرُ
وأبدلتها الظنونُ من طمع   يأساً تغنت والدمعُ منحدر
"كانوا بعيداً فكنت آملهم   حتى إذا ما تقربوا هجروا"

ويضمن من الشعر الأموي كما في قوله[4] :

أقولُ حينَ رَآني الناسُ ألزَمُهُ   كأنما ليَ في حانوتهِ وَطنُ
مَن كانَ يسألُ عَنّا أين مَنزلنا   فالأقحُوانَة منا مَنزل قمَنُ

فالبيت الأخير للحارث بن خالد المخزومي ، وكان أمير مكة على عهد عبد الملك بن مروان[5] .

---

(١) **الإيضاح في علوم البلاغة** ، ص ٥٩٤ .

(٢) **زهر الآداب** ٢/ ١٠٤٦ .

(٣) **جمع الجواهر** ، ص ٣٥٥-٣٥٦ .

(٤) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠٣ .

(٥) انظر : **الأغاني** (٣/ ٣٢٢) .

كما يضمن من شعر العباسيين ، فقد ضمن بيت أبي نواس في قوله[1] :

قل لابن حرب طيلسانكَ قد أضـوى قـواي بكثـرة الغـرم

فكأنه الخمرُ التي وصفـت في (يا شقيق الروح من حكم)

فهو من بيت أبي نواس[2] :

ياشقيق النفس من حكـم نمت عن ليلي ولم أنـم

وقد يجمع شاعرنا بين الاقتباس والتضمين معاً ، فتجد الآية الكريمة والبيت المشهور في مقطوعة واحدة، كما في قوله[3] :

يا ابنَ حَربٍ كَسوتَني طيلساناً أمرَضَتهُ الأوجاعُ فهُوَ سَقيـمُ

فـإذا ما لبستُـهُ قـالَ سُبحـا نَكَ مُحيى العظام وَهيَ رَميمُ

طَيلسـانٌ لـهُ إذا هَبَّت الريـ حُ عليـهِ بمَنكَبـيَّ هَميـمُ

أذكَرتني بَيتـاً لحِسّـانَ فيـهِ حُـرَقٌ للفـؤادِ حـينَ أقـومُ

لو يَدبُّ الحَوليُّ مَن وَلدِ الـذرِّ عليهـا لأندبَتهـا الكلُـومُ

فجمع بين الآية الكريمة : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[4] ، وبيت حسان[5] : "

لو يَدبُّ الحَوليُّ مِن وَلدِ الـذ رِّ عليها لأندبَتـها الكلُـومُ

---

(١) ثمار القلوب ، ص ٦٠٣ .

(٢) زهر الآداب ، ص ٤٠٩ .

(٣) جمع الجواهر ، ص ١٥٧ .

(٤) سورة يس ، الآية : ٧٨ .

(٥) ديوان حسان بن ثابت ؛ تحقيق سيد حنفي حسنين - ط١ - القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٣م، ص٨١ .

٣ - **لوازم شعرية :**

للحمدوي لوازم شعرية معينة يكثر ترددها في مقطوعاته ، حتى تكاد تمسها جميعاً ، ومن أهم تلك اللوازم :

أ - **لازمة التغني** : فمعظم شخصيات سخريته تتغنى ، العجماء ، وغير العجماء ، والجمادات ، بل وهو شخصيّاً يتغنى بالشعر والقول الجميل ، فمن تغني الشاة شاكية شدة العذاب(١):

كم تغنت لديهم حين لم تُـطـ عم ولم ترع غير محض التراب
رب لا صبر لي على ذا العذاب قد برى مهجتي وأبلى شبابـي

ومن تغنيها بشعر الغزل في سياق تمني العلف(٢) :

وأبدلتها الظنونُ من طمع يأساً تغنت والدمعُ منحدر
كانوا بعيداً فكنـت آملهـم حتى إذا ما تقربوا هجــروا

ومن تغنيها حين تمر عليه(٣) :

مـرت علـى علـف فقامـت لم تـرم عنهُ وغنـت والمدامـع تسجـمُ
وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخـرُ عنـــه ولا متقـــدمُ

ومن تغنيها على فواته(٤) :

فتغنـت وأبصـرت رجـلاً حامـلاً علـف
بأبــي مـن بكفــه برءُ دائي من الدنـف

---

(١) **ثمار القلوب** ، ص ٣٧٦ .
(٢) **جمع الجواهر** ، ص ٣٥٥-٣٥٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٥ .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٥٦ .

ومن تغنيها لتطاول جوعها [١] :

وكم قد تغنت إذ تطاولَ جوعُها ... ولم ترَ عندَ القوم شيئاً منَ الطعم

ألا أيها الغضبانُ بالله ما جُرمي ... إليك فقد أبليت لحمي على عظمي

وأما الطيلسان فيتغنى لحظة رفوه [٢]:

كم تغنى إذ رأى رفوي لهُ ... يصدعُ الباقي صدعاً مُسرعا

لم يزدني الرفو إلا ولعا ... ضرني أكثر مما نفعا

ويتغنى لحظة لبسه[٣] :

كَساني ابنُ حَربٍ طَيلَساناً كَأَنَّهُ ... فتىً عاشقٌ بالٍ مِنَ الوَجدِ كَالشَنِّ

يُغَني لإبراهيمَ حينَ لبستُهُ ... ذهَبتُ منَ الدُنيا ومَا ذهَبت مِني

وأبو خرزة عاشقُ " عجاب " يتغنى[٤] :

ألم ترَ في ابن أبي خرزة ... يُحبُّ "عجاباً" كما قد زعم

وغنى وقد ضربته الشمالُ ... وأصبح من بردها قد صدم

أخذت بريدي فأعريتني ... وأورثت جسمي طول السقم

والحمدوي نفسه يتغنى[٥] :

واصطحبتُ الراح يوماً ... ثمَّ أنشدت أغني

لا يجُرم صدَّ عني ... صدَّ عني بالتجني

(١) ثمار القلوب ، ص ٣٧٦-٣٧٧ .

(٢) المحاسن والمساوئ ، ص ٨٥ .

(٣) ثمار القلوب ، ص ٦٠٣ .

(٤) طبقات الشعراء ، ص ٣٧١ .

(٥) العقد الفريد ٦/٣٠٣ .

ويغني للطيلسان شاكياً رحيله[1] :

إن أتهمَ الرُّفاءُ في رفْوهِ   مَضى بهِ التمزيقُ في نَجدِ
غنيتُهُ لما مضى راحِلاً   يا واحِدي تركتني وَحدي

وحيناً يغني بقايا الطيلسان[2] :

وَقد غَنَّيتُ إذ أبصَرتُ مِنهُ   بَقاياهُ عَلى كَتفي تَداعى
قِفي قَبلَ التَّفَرُّقِ يا ضُباعا   وَلا يَكُ مَوقِفٌ مِنكِ الوَداعا

ب - **لازمة الإنشاد** : وهي لازمة أقل ذكراً من لازمة التغني ، وإن كانتا متقاربتين في المعنى ، غير أنه يوردها مسندة إلى العاقل : الشاعر نفسه أو أحد من الناس ، ولا يعدد مسندها كما يفعل في لازمة التغني ، ومن إسناده لازمة الإنشاد لنفسه قوله في الطيلسان[3]:

أنشدتُ حينَ طغى فأعجزني   (ومنَ الغناء رياضة الهرم)

وقوله[4] :

واصطحبتُ الراح يوماً   ثمَّ أنشدت أغني
لا يجُرم صدَّ عني   صدَّ عني بالتجني

ومن إسناده الإنشاد لغيره قوله[5]:

وكَم رَآكَ أخٌ لي ثمَّ أنشدَني   وَدِّع هُرَيرة إنّ الركبَ مُرتَحِلُ

---

(١) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٦- ١٠٤٧ .

(٢) المرجع السابق ١/٥٥٣ .

(٣) **زهر الآداب**، ص ٥٥١- ٥٥٢ .

(٤) **العقد الفريد** ٦/٣٠٣ .

(٥) **زهر الآداب** ٢/ ١٠٤٦ .

ج - لازمة " كم " التعجبية :

ويكثر الحمدوي من تكرار " كم "التعجبية في مقطوعاته ، وغالبا ما يمهِّد بها للازمتين السابقتين ، كما في قوله متعجباً من تغني الطيلسان(1) :

كـم تغنـى عليـه حيـ ـن تهـوى بنـو الـورى

ومتعجباً من تغنيه وهو يرفى(2) :

كم تغنى إذ رأى رفوي لهُ يصدعُ الباقي صدعاً مُسرعاً

ومتعجباً من تغني الشاة حين لم تطعم(3) :

كم تغنتْ لديهم حين لـم تُـط عم ولم ترع غير محض التراب

وحين تطاول جوعها(4) :

وكم قد تغنت إذ تطاولَ جوعُها ولم ترَ عندَ القوم شيئاً منَ الطعم

ويتعجب من تغنيها شوقاً إلى العلف(5) :

كـم قـد تغنـي ولهـا شـوق إليـه ولهـف

ويتعجب من سخرية أصحابه من الطيلسان(6) :

وَكَم رَآكَ أخٌ لي ثمَّ أنشدَني وَدِّع هُرَيرة إنّ الركبَ مُرتَحِلُ

(1) المحاسن والمساوئ ، ص ١٠٦ .

(2) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(3) ثمار القلوب ، ص ٣٧٦ .

(4) المرجع السابق ، ص ٣٧٦-٣٧٧ .

(5) جمع الجواهر ، ص ٣٥٦ .

(6) زهر الآداب ٢/ ١٠٤٦ .

د - لازمة " قل " : وهي أقل من سابقاتها ، ووردت كلها في السخرية من الطيلسان كقوله(١) :

قل لابن حرب طيلسا نكَ قومُ نوح منهُ أحدث

وقوله(٢) :

قل لابن حرب طيلسانكَ قد أضوى قواي بكثرة الغرم

وقوله(٣) :

قل لابن حرب مقالة العاتب ولستُ فيما أقولُ بالكاذب

٤ - تنوع المطالع :

يمتاز الحمدوي بتنوع مطالعه على الرغم من أن موضوعات سخريته قليلة ، ولكنه يبدع في تقليبها وتفتيق معانيها ، ومنطلقه نحو تلك المعاني مطالعه التي يستهل بها مقطوعاته ، ومن أنواع مطالعه :

أ - النداء ، وهو أكثر مطالعه(٤) :

فينادي ابن حرب "صاحب الطيلسان" :

يا بنَ حَربٍ كَسَوتَني طيلساناً أمرَضَتهُ الأوجاعُ فهُوَ سَقيمُ

ومرة يناديه باسمه الصريح(٥) :

أسعيد قد أعطيتني أضحيّة مكثت زماناً عندكم ما تطعمُ

---

(١) **وفيات الأعيان** ٧ / ٩٧ .

(٢) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠٣ .

(٣) كتاب **التشبيهات** ، ص ٢٤٢ .

(٤) **جمع الجواهر** ، ص ١٥٧ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٣٥٥ .

و ينادي الطيلسان[١] :

يا طَيلسانَ ابنَ حَربٍ قد هَمَمتَ بأن　　تودي بجسمي كَما أودى بكَ الزَمَنُ

وينادي أبا سعيد[٢] :

أبا سعيد لنا في شاتكَ العبرُ　　جاءت وما إن لها بولٌ ولا بعرُ

وينادي ابن البغيضة[٣] :

أيا بن البغيضة وابن البغيض　　ومن هوَ في البغض لا يلحقُ

ب - **الأمر**: ومنه قوله[٤] :

دَعني أبَكي كِسوَتــي إذ وَدَّعَـت　　فَلأزمَعَنَّ عَلى البُكا إذ أزمَعَـت

وقوله[٥] :

قــل لابــن حــرب طيلسا　　نكَ قومُ نوح منهُ أحـدث

وقوله[٦]:

قل لابن حرب مقالة العاتب　　ولستُ فيما أقولُ بالكاذب

ج - **الخبر المؤكد** : ومنه قوله[٧] :

إنَّ ابــنَ حَــربٍ كَســانــي　　ثوباً يُطيــلُ انحـِرافـــه

---

(١) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠٣ .

(٢) **جمع الجواهر** ، ص ٣٥٥ .

(٣) **العقد الفريد** ٢/١٤٤ .

(٤) **وفيات الأعيان** ٧/٩٦ .

(٥) المرجع السابق ٧ / ٩٧ .

(٦) **كتاب التشبيهات** ، ص ٢٤٢ .

(٧) **جمع الجواهر** ، ص ١٥٧ .

د - الخبر المرسل : ومنه قوله(١) :

كَساني ابنُ حَربٍ طَيلساناً كأنَّهُ فتىً عاشقٌ بالٍ منَ الوَجدِ كالشَنِّ

هـ - البدء بالمسخور منه ، و منه البدء بـ "الطيلسان"(٢) :

وَطيلسانٍ إن تَوهَّمتَهُ قددتَهُ بالطولِ والعَرضِ

و -البدء بـ "الشاة" كما في قوله(٣) :

شاة سعيد في أمرها عبرُ لما أتتنا قد مسها الضرر

وقوله(٤) :

بشاة سعيد وهي روح بلا جسم تمثلت الأمثال في شدة السُقم

والبدء بأبي زرارة في قوله(٥) :

رأيتُ أبا زرارة قال يوماً لحاجبه وفي يده الحسامُ

والبدء بأبي نوح في قوله(٦) :

لأبي نوح رغيفٌ أبداً في حجر دايه

و - الاستفهام : ومنه قوله(٧) :

ألم ترَ في ابن أبي خرزة يُحبُّ "عجاباً" كما قد زعم ؟

---

(١) ثمار القلوب ، ص ٦٠٣ .

(٢) كتاب التشبيهات ، ص ٢٢٣ ، ووفيات الأعيان ٦/ ٩٣ .

(٣) كتاب الوافي بالوفيات ٩/٧٩ .

(٤) ثمار القلوب ، ص ٣٧٦-٣٧٧ .

(٥) ربيع الأبرار ، ص ٨٠٣ .

(٦) المحاسن والأضداد ، ص ٥٩ .

(٧) طبقات الشعراء ، ص ٣٧١ .

ز - " كم " التعجبية : ومنه قوله[١] :

كم تغنى إذ رأى رفوي لهُ   يصدعُ الباقي صدعاً مُسرعاً

ح - الدعاء : ومنه قوله [٢] :

كَدَّرَ الله عيشَ من كدَّر العيـ   ـش فقد كان صافياً مستطاباً

وقوله[٣] :

يا قاتَلَ اللهُ ابنَ حَربٍ لقد   أطالَ إتعابي عَلى عمد

ط - الظرف : ومنه قوله[٤] :

بينما نحنُ سالمونَ جميعاً   إذا أتانا ابنُ سالم مختالا

٥ - حسن المقاطع :

عُني الحمدوي بخواتيم مقطوعاته كما هي عادة البلغاء فـ " قلما رأينا بليغا إلا ويقطع كلامه على معنى بديع أو لفظ رشيق"[٥] ، بل إن شاعرنا يهيء معانيه ، ويترقى في دلالاتها ليكون البيت الأخير هو سدرة منتهاها كما في خاتمته البديعة لهذه المقطوعة[٦] :

يا ابنَ حَربٍ كَسَوتَني طيلساناً   مَلَّ مِن صُحبَةِ الزَمان وَصداً
فحَسِبنا نسجَ العَناكبِ لو قيـ   ـسَ إلى ضُعف طيلسانِكَ سَداً
إن تَنفَّستُ فيهِ ينشقُّ شقاً   أو تَنَحنَحتُ فيهِ يَنقدُّ قداً
طالَ تَردادُهُ إلى الرَفو حَتى   لو بَعَثناهُ وَحدَهُ لتهَدّى

---

(١) المحاسن والمساوئ ، ص ٨٥ .
(٢) زهر الآداب٢/١٠٤٥ .
(٣) المرجع السابق ٢ / ١٠٤٦ .
(٤) العقد الفريد ٦/ ٨٣ - ٨٤ .
(٥) يتيمة الدهر ١/ ٢٣٧ .
(٦) طبقات الشعراء، ص ٣٧٠ .

فلقد أسس لهذه الخاتمة من أول بيت في المقطوعة وظل يترقى في بناء أبياتها وهو ينظر إلى البيت الأخير منها ، وانظر إليه في المقطوعة التالية كيف يهجو الملقب بالمضرطان ، ويرجيء قمة السخر منه إلى البيت الأخير حتى لايتعلق المتلقي بشيء بعدها ، ولأنه لا آلم منها لضحيته[1] :

ألذ من صحبة القناني أو اقتراح على قيان
لكز فتىً من بني لكيز يهدى له أهون الهوان
أهوى له بازل خدب يطحن قرنيه بالجران
فنال منه ثؤور قوم باليد طوراً وباللسان

وفي مقطوعة أخرى يترقى شاعرنا من مبتدأ أمر الطيلسان هديةً حتى ذبحه على يد الرفاء ، فأخَّر ذكر الذبح إلى البيت الأخير ليكون خاتمة الأحداث ، فليس بعد الموت إلا الصمت[2] :

طَيلسانٌ لابن حَرْبٍ جاءَني خلعَة في يَوم نحس مستمر
فإذا ما صحتُ فيهِ صَيحَة تَركتهُ كهشيم المُحتظر
وَإذا ما الريحُ هَبَّت نَحوَهُ طَيَّرَتهُ كَالجَرادِ المُنتَشِر
مُهطعُ الداعي إلى الرافي إذا ما رآهُ قال ذا شيءٌ نُكُر
وَإذا رَفاؤُهُ حاوَل أن يَتلافاهُ تعاطى فعَقر

وغالباً ما يختم الحمدوي مقطوعته بآية قرآنية ، كما في قوله[3] :

أبَداً يقرأ مَن أبصَرَه أإذا كُنا عِظاماً نَخِرَة

---

(١) **الأغاني** ١٣/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٢) **زهر الآداب** ١/٥٥٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٢٥ .

وقوله [١] :

وَمُستَخبرٍ خَبَرَ الطيلســانِ فُقلتُ لهُ: (الروحُ من أمر رَبي)

وقوله[٢] :

كالكلــبِ إن تَحمــل عليــه الدهــرَ أو تتركــه يلهــث

أو مستوحياً مأثوراً من القول ، كما في قوله[٣]:

كَـأنَّ إشفاقـي عَليـهِ إذا غَدَوا إشفاقي عَلى عِرضي

لو أنهُ بَعـضُ بَنـي آدَمَ كانَ أسيرَ اللهِ فـي الأرض

أو منشداً بيتاً من الشعر ، كما في قوله[٤] :

وكَم رَآكَ أخٌ لي ثمَّ أنشدَنــي وَدِّع هُرَيرة إنّ الركبَ مُرتَحِلُ

وقوله[٥] :

أذكَرَتني بَيتـاً لحِسّـانَ فيـهِ حُـرَقٌ للفـؤادِ حــينَ أقــومُ

لو يَدِبُّ الحَوليُّ مَن وَلدِ الذرِّ عليــها لأندبَتــها الكلُــومُ

وقوله[٦] :

قِفي قَبلَ التَّفرُّقِ يا ضبُاعــا وَلا يَكُ مَوقِفٌ مِنكِ الوَداعا

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٤١٠ .

(٢) وفيات الأعيان ٩٧/٧ .

(٣) كتاب التشبيهات ، ص ٢٢٣ ، ووفيات الأعيان ٦/ ٩٣ .

(٤) زهر الآداب ٢/ ١٠٤٦ .

(٥) جمع الجواهر ، ص ١٥٧ .

(٦) زهر الآداب١/٥٥٣ .

أو متغنياً بآخر كما في قوله(١) :

غنيتُــهُ لما مضَــى راحِـلاً   يا واحِدي تركتنــي وَحــدي

أو ناسباً التغني لغيره(٢) :

وأبدلتها الظنونُ من طمع   يأساً تغنتْ والدمعُ منحدر

كانوا بعيداً فكنـت آملهــم   حتى إذا ما تقربوا هجــروا

٦ - بساطة اللغة :

ثمة علاقة قارة بين فن السخرية واللغة البسيطة التي تقترب من حديث الناس اليومي ، ولذا نلمح في قاموس الحمدوي تراكيب وألفاظا مستقاة من حديث الحياة اليومية التي تدور في مجالس الأنس ، وبين المحبين، وينطق بها الناس في أسواقهم وأزقتهم .. ومن مفردات التلطف والتحنن عند الحمدوي المفردة المشهورة "بحياتي" في قوله على لسان "شاة سعيد"(٣) :

كلما أضجعتها للـذ   بح قالت بحياتــي

والمفردة المشهورة " سيدي " في قوله مخاطباً الحسن بن إبراهيم(٤):

سيـدي أعـرضَ عنــي   وتناســى الودَّ منـي

مرَّبي أضحى وأضحى   أخلفاني فيه ظنـي

لا يرانــي فيهمــا أهـ   ـلا لظلـف أو لقـرن

---

(١) المرجع السابق ٢ / ١٠٤٧ .

(٢) **جمع الجواهر** ، ص ٣٥٥-٣٥٦ .

(٣) **ثمار القلوب** ، ص ٣٧٦ .

(٤) **العقد الفريد** ٦/٣٠٣ .

والمفردة السائرة بين المتعلمين "إلى آخر الآية" في قوله عن رغيف أبي نوح[1] :

لأبي نوح رغيفٌ أبداً في حجر دايه
برَّةٌ تمسحه الدهـ ـر بكمٍ ووقايه
وله كاتب سر خط فيها بعنايه
فسيكفيكهم الله إلى آخر الآيه

ومفردة " أيضا" في قوله عن طفيلي[2] :

وتأكل أكل ميسرة وأيضاً فلا بد لعرسك من زليله

وقوله عن ابن سالم المغني[3] :

فتغنى صوتاً فكان خطاء ثم ثنى أيضاً فكان محالا

ومفردة " هاهنا" في قوله عن "شاة سعيد"[4] :

جادَ سعيدٌ لي بشاة ذاتِ سقم ودنف
ناحلة الجسم إذا ما هيَ مرَّت بالجيف
صاحت عليها ها هنا يا أختنا ذات العجف

والعبارتان المشهورتان "كما قد زعم" و "يدلك" ذات الدلالة الخاصة في قوله عن "ابن أبي خرزة "[5]:

ألم ترَ في ابن أبي خرزة يُحبُّ "عجاباً" كما قد زعم
وليس بكفيه من حبها سوى أن يدلِّك أو يحتلم

(١) المحاسن والأضداد ، ص ٥٩ .
(٢) ثمار القلوب ، ص ١٩ .
(٣) العقد الفريد ٦/ ٨٣- ٨٤ .
(٤) ثمار القلوب ، ص ٣٧٦ .
(٥) طبقات الشعراء ، ص ٣٧١ .

والمفردة المشهورة في مخاطبات الناس بعضهم بعضا : "والسلام" ، في قوله على لسان بخيل(١) :

لئن وضع الخوانُ ولاح شخصٌ لأختطفن رأسك والسلامُ

٧ - الحوارية :

من خصائص أسلوب الحمدوي في سخريته ما تحفل به مقطوعاته من حوارية ظاهرة يصيرها سبيلاً للإبانة عن سخريته، كما في مقطوعته عن "شاة سعيد" التي أسسها على حوار طرفيه: الشاعر نفسه و"الإخوان"، مقسماً سخريته بين طرفي الحوار ، فالشاعر يسخر من الشاة التي هي روح بلا جسم ، ومثال في السقم ، والإخوان يجيبونه ساخرين من الشاة "الشطرنج"(٢) :

بشاة سعيد وهي روح بلا جسم تمثلت الأمثال في شدة السُقم
يقولُ لي الإخوانُ لما طبختها أتطبخ شطرنجاً عظاماً بلا لحم
فقلت كلوا منها فقالوا تجمزاً أتطعمنا ناووس قوم من العُجم
فقلتُ لهم كانت لديهم أسيرة ترى القتّ في أيدي العدو وفي الحُلم
وكم قد تغنت إذ تطاولَ جوعُها ولم ترَ عندَ القوم شيئاً منَ الطعم
ألا أيها الغضبانُ بالله ما جُرمي إليك فقد أبليت لحمي على عظمي

ومن مقطوعاته التي أسسها على الحوارية ، حديثه عن أبي زرارة وحاجبه ، حيث فتَّق من ذلك الحوار كل معاني السخرية ، فأبو زرارة يوصي حاجبه بمنع الآكلين عن الدخول عليه ، والحاجب يستجيب ولكنه يستثني أبا البخيل ظنا أن هذا من تحصيل الحاصل ، فيستمر الحوار الساخر لنفاجأ أن هذا البخيل لايستثني أباه

(١) ربيع الأبرار ، ص ٨٠٣ .

(٢) **ثمار القلوب** ، ص ٣٧٦-٣٧٧ .

ولا كل القرابات الإنسانية ، ويتزايد كَمُّ السخر كلما امتد الحوار بين البخيل وحاجبه، حتى ينتهي الحال بأبي زرارة إلى شعار عام يتخذه في حياته[1] :

رأيتُ أبا زرارة قال يوماً لحاجبه وفي يده الحسامُ
لئن وضع الخوانُ ولاح شخصٌ لأختطفن رأسك والسلامُ
فقال سوى أبيك فذاك شيخٌ بغيض ليس يردعه الكلامُ
فقام وقال من حنق إليه ببيت لم يرد فيه القيامُ
أبي وابنا أبي والكلبُ عندي بمنزلة إذا حضرَ الطعامُ
وقال له ابن لي يا ابن كلبٍ على خبري أصادَرُ أم أضامُ
إذا حضرَ الطعامُ فلا حقوقٌ عليَّ لوالدي ولا ذمامُ
فما في الأرض أقبح من خوان عليه الخبز يحضرهُ الزحامُ

٨ - الاعتراض :

من سمات الحمدوي الفنية في سخريته حسن توظيفه للاعتراض الذي ينمي من خلاله أثر السخرية، ويفرع أغصانها ، كما في سخريته من "ابن البغيضة" حين يتضمن الاعتراض أن المذكور لايصدق حسب علم الشاعر إلا إن اعترف ببغض نفسه! [2] :

أيا بن البغيضة وابن البغيض ومن هوَ في البغض لا يلحقُ
سألتك بالله إلا صدقتَ وعلمي بأنك لا تصدقُ
أتبغضُ نفسك من بغضها وإلا فأنت إذاً أحمق

(١) ربيع الأبرار ، ص ٨٠٣ .
(٢) العقد الفريد ٢/١٤٤ .

ومن اعتراضات الحمدوي الساخرة: تكذيبه ابن أبي خرزة في حب "عجاب"[(١)]:

ألم ترَ في ابن أبـي خــرزة   يُحبُّ "عجاباً" كما قد زعم

ثم وصفه إياه وهو يغني وريح الشمال الباردة تضربه[(٢)] :

وغنى وقد ضربته الشمالُ   وأصبح من بردها قد صدم

وإذ يسـخـر الحـمـدوي من "شـاة سـعيـد" حين تمر بالعلف فتغني عليـه، يأتي الاعتراض موغلاً في السخر بذكر مدامعها التي تسجم[(٣)] :

مرت على علف فقامت لم ترم   عنهُ وغنت والمدامع تسجمُ

وإذ يسـخــر الحـمـدوي من "ابن حـرب وطيلســانه" ، يأتي الاعـتـراض لينزه شاعرنا عن الكذب[(٤)]:

قل لابن حرب مقالة العاتب   ولستُ فيما أقولُ بالكاذب

أما رأيتَ الرفاءَ يحزننـــي   يرفوه طيلسانَكَ الذاهب

وقد يأتي الاعتراض على لسان الشاة تلوذ بالقسم ، مناشدة من يجيعها[(٥)]:

ألا أيها الغضبانُ بالله ما جُرمي   إليك فقد أبليت لحمي على عظمي

وقد يأتي الاعتراض ليكمل أجزاء الصورة الساخرة ، كما في قوله[(٦)] :

رأيتُ أبا زرارة قال يوماً   لحاجبه وفي يده الحسامُ

---

(١) **طبقات الشعراء** ، ص ٣٧١ .
(٢) المرجع نفسه ، الموضع نفسه .
(٣) **جمع الجواهر** ، ص ٣٥٥ .
(٤) كتاب **التشبيهات** ، ص ٢٤٢ .
(٥) **ثمار القلوب** ، ص ٣٧٦-٣٧٧ .
(٦) **ربيع الأبرار** ، ص ٨٠٣ .

أوالإشارة إلى المبالغة في الحرص ، والتدقيق في الصغائر[1] :

وتعاويذُ عليه　　خط فيها بعنايه

٩ - الثنائية :

وظف الحمدوي الثنائية في سخيرته اللاذعة، وذلك أنه يذكر متضادين ثم يعقد المقارنة بينهما ، موازناً بين صفاتهما، وأحياناً يضاد بين الشيء والشيء ذاته من حيث الاختلاف في درجتهما ، فهناك السيِّء وما هو أسوأ منه ، مخالفاً توقعات المتلقي الذي يحسبه سيقارن بين الشيء وضده ، كما قد يعمد الحمدوي في ثنائيته إلى المبالغة ، فيعظم شأن التضاد بين أمرين، ويبعد المفارقة بينهما مما يزيد سخريته سخرية ، ومن ذلك البناء التضادي بين الصورتين في مقطوعته التالية التي نرى فيها ثنائية التضاد :الحمدوي قبل الطيلسان ، والحمدوي بعد الطيلسان[2]:

طيلسانٌ لابن حَربِ　　ذو أيادٍ ليسَ تُحصى
أنا فيهِ أشعَرُ النا　　س إذا ما الشعرُ نصّا
وأراني صِرتُ أدنى　　بَعدَما قد كُنتُ أقصى
وَاتَقاني الناسُ وَازدا　　دوا عَلى شعريَ حِرصا
وَلكَم قد حازَ لي أر　　ديَة تترى وَقمصا
كانَ دَهراً طيلساناً　　ثمَّ قد أصبَحَ شِصّا

وفيهما نرى السلب يضاد الإيجاب ، فالحمدوي غير الشاعر يصبح أشعر الناس ، والحمدوي المنبوذ أمسى مقرباً ، والحمدوي ضعيف الجانب صار مهاباً ،

(١) **المحاسن والمساوئ** ، ص ٣٥ .
(٢) **جمع الجواهر** ، ص ١٥٣ .

وبعد القميص الواحد ، والرداء الواحد بات الحمدوي يحوز بفضل الطيلسان أردية وقمصاً ، ثم يختم المقطوعة بالنتيجة المنطقية لحقيقة هذا الطيلسان على أساس ثنائي أيضا ، وهو تحول الطيلسان من لباس مصَمّتٍ إلى شص يصطاد به ، وهي ثنائية في الطبيعة والوظيفة معا بين الطيلسان والشص(١) :

كانَ دَهراً طيلسانـاً ثمَّ قد أصبَـحَ شِصّـا

ولا شك أن الحمدوي كان على وعي بشأن هذه الثنائية وأثرها العميق في نفس المتلقي فهي تثير انفعالاته وتوقظ مشاعره، وتعينه على تلمس الفروق بين الأشياء وبخاصة حين تكون في قالب من السخرية "فأساس السخرية: المقابلة بين حقيقة الشيء وبين ما يظهر به مخالفاً لحقيقته، أو المقارنة بين ما هو عليه وما ينبغي أن يكون عليه، بين الإلف ومجانبته العادات المتبعة"(٢) .

ولقد كان الحمدوي من خلال المفارقات التي تتضمنها ثنائيته تلك ذا عين بصيرة بتلقيط المعايب، واقتناص النقائص ، كما في حاله مع الطيلسان فهو يجدُّ في رفوه ، والبلى يجد في بليه ، وللرفاء وجهته ، وللتمزيق وجهة مضادة ، فهما لا يلتقيان ، ولذا فمحال صلاح أمر الطيلسان(٣) :

أجدُّ في رَفوي لهُ وَالبلى يَلهو بهِ في الهَـزلِ والجِـدِّ
ذكَّرني الجَنَـةَ لمـا غَـدا أصحابُها مِنها عَلى حَـردِ
إن أتهَمَ الرُفاءُ في رَفـوهِ مَضى بهِ التمزيقُ في نَجد

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٢) **فن السخرية في شعر ابن الرومي** . د. نشأت النعماني - ط١ - القاهرة : مطبعة السعادة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص٣١٧ .

(٣) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٦- ١٠٤٧ .

وهناك ثنائية اللون حين نلاحظ المفارقة التي يشير إليها الحمدوي من سواد الطيلسان بعد بياضه ، وفي ذلك عبرة لمن يعتبر [1] :

فيما كَسانيهِ ابنُ حَربٍ مُعتَبَر　　فانظر إليهِ فإنه إحدى الكُبَر

قد كانَ أبيضَ ثمَّ مازلنا بهِ　　نَرفوهُ حَتى اسوَدَّ مِن صَدَإِ الإبَر

ويتسع الحمدوي بالثنائية فيوظفها في السخرية من تضاد الأمور في عصره ، وانقلاب الأحوال ، فحال الحمق مع الشبع تضادها حال العقل مع الجوع[2]:

عذلوني على الحماقة جهلاً　　وهي من عقلهم ألذُّ وأحلى

حمقي اليوم قائمٌ بعيالي　　ويموتونَ إن تعاقلتُ ذلا

ويقابل بين حال الرجال الذين ركبوا الزمن ، وحاله الوضيعة ، ويطلب العدالة في الحالين ، ركوباً للجميع أو ترجلا للجميع[3]:

تسامى الرجالُ على خيلهم　　ورجلي من بينهم حافيه

فإن كنتَ حاملنا ربنا　　وإلا فأرجل بني الزانيه

وهو ما يدل على انقلاب الدنيا وتبدل الأحوال ، واختلال الموازين ، فالدنيا مقبلة على السفهاء، مدبرة عن الأصلاء، وأرباب الأدب - كالحمدوي - حفاة مع قوة بيانهم ، وحسن أخلاقهم ، في حين يركب الجهلاء الحمقى الأدعياء الذين ينتمون إلى قاع المجتمع "أبناء الزواني" وفي ذلك قمة السخرية ، ولكنها سخرية مشوبة بالمرارة التي تحرق فؤاد الحمدوي فلم يجد سوى طلب المساواة بهم من الله فهو أهون لديه، ولعلها من السخرية الأمرّ حين يكون غاية أمل المرء أن يساوى بـ "أبناء

---

(١) **طبقات الشعراء** ، ص ٣٧١ .

(٢) **غرر الخصائص الواضحة** ، ص ١٢٨ .

(٣) **المحاسن والمساوئ** ١/ ٤٥١ .

الزواني" بعد أن انقطع كل أمل، وزال كل رجاء في التفوق عليهم واعتدال الأمر وعودة الأوضاع إلى حقائقها.

وقوله يصور ثنائية التضاد بين : القلم والمال[1] :

ثنتان من أدوات العلم قد ثنتا — عنان شأوي عما رمت من هممي

أما الدواة فأودى حملها جسدي — وقلم المال مني حرفة القلم

وحبرت في صحف الحرف محبرة — تذود عني سوام المال والنعم

والعلم يعلم أني حين آخذه — لعصمتي نافر خلو من العصم

١٠ - الموسيقية :

في شعر الحمدوي موسيقية مطربة، تكشف عن ذائقة شعرية، وبصر بالإيقاع، ولهذه الموسيقية عند الحمدوي مظاهر أهمها :

أ - **التجنيس** : في مقطوعات شاعرنا الساخرة يبدو تلاعبه بالألفاظ والمعاني ظاهراً ، فيحرك الألفاظ ويبدل حروفها ويقدم فيها ويؤخر ، وقد يحوِّل الشيء عن أصله، ويحرف دلالاته، كما يحسن المفارقة بين الاسم والمسمى، والاسم والكنية، والاسم واللقب، وكذلك تصحيف الكلمات، وقلبها، ومن ذلك التلاعب في معنى الكلمة، فيكون للكلمة معنيان ، أو لها استعمالان ، فيأتي بهما في البيت أو البيتين المتتاليين ، ومن خلال التجنيس يمارس الخداع الصوتي الذي يوحي باتحادهما في المعنى كما اتحدا في اللفظ ، فما هو إلا ويدرك السامع اختلاف المعنى بينهما ، وكما قال عبد القاهر الجرجاني: "فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً ، فترى الشاعر قد أعاد عليك اللفظة كأنه

(١) **أدب الكتاب** . أبو بكر محمد الصولي ؛ تحقيق محمد الأثري -- القاهرة : المطبعة السلفية، ١٣٤١ هـ ، ص ٩٤ ، والبيت الأخير زيادة في زهر الآداب ٥١٢/١-٥١٣ .

يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك، وقد أحسن الزيادة ووفاها." [١]. ومن أكثر ألوان التجنيس عند الحمدوي ، ما يعرف بجناس الاشتقاق ، كمجانسته بين فعل واسم من جذر لغوي واحد "لبس" و"لباس"[٢] :

لبس الأيام حتى لم تدع فيه لباسا

ومجانسته بين "يملك" و "مُلْك"[٣] :

كأنه من طول رفقي به يملكني مذ صار في ملكي

ومجانسته بين "أجد" و "الجد"[٤] :

أجدُّ في رَفوي لهُ وَالبلى يَلهو بهِ في الهَزلِ والجدِّ

ومجانسته بين "أوهنت" و "الوهن"[٥] :

ما فيكَ مِن مَلبَس يُغني وَلا ثمَنٍ قد أوهَنَت حيلتي أركانُكَ الوُهُنُ

ومجانسته بين "مستخبر" و "خبر"[٦]:

وَمُستَخبرِ خَبَرَ الطيلسانِ فَقُلتُ لَهُ : (الروحُ من أمر رَبي)

ومجانسته بين "ثنتان" و "ثنتا"[٧] :

ثنتان من أدوات العلم قد ثنتا عنان شأوي عما رمت من هممي

---

(١) **أسرار البلاغة** . عبد القاهر الجرجاني؛ تحقيق محمود شاكر ٠- ط١ ٠- جدة : دار المدني، ص٧- ٨ .

(٢) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٨ .

(٣) **كتاب التشبيهات** ، ص ٢٤١ .

(٤) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٦- ١٠٤٧ .

(٥) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠٣ .

(٦) **زهر الآداب**، ص ٤١٠ .

(٧) **أدب الكتاب** ، ص ٩٤ ، **وزهر الآداب** ٥١٢/١ .

ومجانسته بين "الدواة" و "أودت" وبين "قلّم" و"القلم" (١) :

أما الدواة فأودى حملها جسدي وقلّم المال مني حرفة القلم

ومجانسته بين "حبرت" و "محبرة"(٢) :

وحبرت في صحف الحرف محبرة تذود عني سوام المال والنعم

ومجانسته بين "الضعة" و "اتضاعا"(٣) :

رَأينا طَيلسانَكَ يا ابنَ حَربٍ يَزيدُ المَرءَ في الضَعةِ اتضاعا

ومجانسته بين "لَكْزُ" و "لكيز"(٤) :

لَكْزُ فتىً من بني لكيز يهدى له أهون الهوان

ومجانسته بين "عصمتي" و"العصم"(٥) :

والعلم يعلم أني حين آخذه لعصمتي نافر خلو من العصم

ومجانسته بين "يضرط" و "مضرطان"(٦) :

وكان يفسو فصار حقاً يضرط من خوف مضرطان

وقد يجانس بين الكلمة وبعضها كما في مجانسته بين "الطيلسان" و"سانا"(٧):

وثقل اسم الطيلسان لضعفه فسميته (سانا) فهل ذاك نافعي؟

(١) المرجع السابق ، الموضع نفسه .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) زهر الآداب١/٥٥٣ .

(٤) الأغاني ١٣/ ٢٦٢ .

(٥) زهر الآداب ١/ ٥١٣ .

(٦) الأغاني ١٣/ ٢٦٢ .

(٧) المحاسن والمساوئ ، ص ٧٦ .

ومن جناس القلب عنده قلب بعض الحروف في لفظتي "عِبَرُ - بَعَرُ" حين يقول(١):

أبا سعيد لنا في شاتكَ العبرُ   جاءت وما إن لها بولٌ ولا بعرُ

ب - **التصريع** : " وهو جعل العروض مقفاة تقفية الضرب"(٢) ، وهو كثير في مقطوعات الحمدوي ، ويأتي في مطالعها ، ومن تصريعه قوله في الطيلسان(٣) :

أيا طَيلسانِيَ أعيَيتَ طِبِّي   أسِلٌ بجسمِكَ أم داءُ حُبٍّ؟

وقوله(٤) :

فيما كَسانيهِ ابنُ حَربُ مُعتَبَر   فانظر إليهِ فإنه إحدى الكُبَر

وقوله(٥) :

قل لابن حرب مقالة العاتب   ولستُ فيما أقولُ بالكاذب

وقوله في "مضرطان"(٦) :

ألذ من صحبة القناني   أو اقتراح على قيان

وقوله في "شاة سعيد"(٧) :

شاة سعيد في أمرها عبرُ   لما أتتنا قد مسها الضرر

(١) جمع الجواهر ، ص ٣٥٥ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٥٦٧ .

(٣) زهر الآداب ١/ ٥٥٢ .

(٤) طبقات الشعراء ، ص ٣٧١ .

(٥) كتاب التشبيهات ، ص ٢٤٢ .

(٦) الأغاني ١٣/ ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٧) الوافي بالوفيات ، ٢٢٦٤ .

وقوله[١] :

بشاة سعيد وهي روح بلا جسم   تمثلت الأمثال في شدة السُقم

وقوله[٢] :

سيـدي أعـرضَ عنـي   وتناسى الـودَّ منـي

ج - **التكرار** : "وهو تكرار اللفظ الأول" [٣] . تعتمد موسيقية التكرار على التماثل أو التقارب الصوتي، وما يتضمنه هذا التكرار من إيقاع مميز يضاعف الموسيقية التي يتسم بها الفن الشعري ، ومنها موسيقية التكرار في : "فعلن - فعل" حين يقول[٤] :

يا طليساناً إذا الألحاظُ جُلنَ بهِ   فَعَلنَ فِعلَ سِهام فيهِ تنتضل

وموسيقية التكرار في "يصدع - صدع" في قوله[٥] :

يَصدَعُهُ اللحظ بإيماضِهِ   صَدعَ فؤاد العاشقِ المُغرَم

وموسيقية التكرار في "تتعب - تعب" في قوله[٦] :

تتعب المقلةُ كي تـد   رك منه أثراً مـا
تعبَ الفكرة في إخـ   ـراجها البيتَ المعمّى

---

(١) **ثمار القلوب** ، ص ٣٧٦-٣٧٧ .

(٢) **العقد الفريد** ٦/٣٠٣ .

(٣) انظر: **معترك الأقران** . السيوطي ؛ تحقيق علي البجاوي·- القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٦٩م ١/٣٣٣.

(٤) **زهر الآداب** ٢/ ١٠٤٦ .

(٥) **كتاب التشبيهات** ، ص ٢٤٠ .

(٦) **يتيمة الدهر** ، ص ٢٠٨ .

وتكراره "كدر الله عيش" في قوله[1] :

كَدَّرَ الله عيشَ من كدَّر العيـ ـش فقد كان صافياً مستطابا

وتكراره " أضحى " في قوله[2] :

مرَّ بي أضحى وأضحى أخلفاني فيه ظني

وتكراره "صد عني" في قوله[3] :

لا بجرم صدَّ عني صدَّ عني بالتجني

وتكراره "الناس" في قوله[4] :

في حر أم الناس إن كنتَ من الناس تعد

وتكراره "قرب" في قوله[5] :

قرَّبَ الناسُ الأضاحي وأنا قربتُ شاتي

وتكراره "الدهر" في قوله[6] :

طيلسانٌ ما زالَ أقدَمَ في الدَهـ ـر منَ الدهرِ ما لرفوه حيله

وتكراره "مات" في قوله[7] :

مات رفاؤه ومات بنوه وبدا الشيب في بنيهم وشاخوا

---

(١) **زهر الآداب**٢/١٠٤٥ .

(٢) **العقد الفريد** ٦/٣٠٣ .

(٣) المرجع السابق ٦/٣٠٣ .

(٤) **ثمار القلوب** ، ص ٣٧٦ .

(٥) **العقد الفريد** ٢/١٤٤ .

(٦) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٧ .

(٧) **وفيات الأعيان** ، ٧ /٩٧ .

وتكراره "قرنا" و" أناسا "في قوله[1] :

قد طـوى قرنـاً فقرنـاً وأناســاً فأنـاســا

وتكراره "أفنى" في قوله[2] :

أفناه جورُ البلى عليه كما (أفنى الهوى عمرَ خالد الكاتب)

١١ - الجد يراد به الهزل :

ومن أسلوب الحمدوي في السخرية معالجة الشيء الحقير كأنه عظيم، أو ما يسمى بـ "الجد يراد به الهزل"[3]. وهو أسلوب برع فيه شاعرنا، وأحسن توظيفه في مقطوعاته الساخرة ، إذ يعمد إلى كثير من التراكيب والألفاظ التي عرفت في سياقاتٍ من جاد القول، فيصيرها في شعره سبيلا لإيقاع المفارقة بين سياقها الجاد في ذاكرة المتلقي، وسياقها الساخر عند الحمدوي ، كما في توظيفه للتركيب القرآني ﴿مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾[4] :

صاح بـي ابن سعيـد مـن وراء الحجـرات

قرَّبَ الناسُ الأضاحي وأنا قربـتُ شاتـي

فسياقها الجاد ورد في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ...﴾[5] .

ومن ذلك توظيفه للتركيب القرآني ﴿نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ و ﴿هَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ في قوله[6] :

---

(١) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٨ .

(٢) **كتاب التشبيهات** . لابن أبي عون ، ص ٢٤٢ .

(٣) انظر: **زهر الآداب**، ص ٢١-٢٧ .

(٤) **ثمار القلوب** ، ص ٣٧٦ .

(٥) سورة الحجرات ، الآية : ٤ .

(٦) **زهر الآداب**١/٥٥٢ .

طَيلسانٌ لابن حَربٍ جاءَني   خلعَة في يَوم نحس مستمـر

فإذا ما صحتْ فيه صَيحَـة   تَركتــهُ كهشيــم المُحتظــر

فسياقهما الجاد وردا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾(٢) .

وتوظيفه للتركيب القرآني ﴿يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ في قوله(٣) :

فإذا ما لبستُهُ قالَ سُبحا   نَكَ مُحيى العظام وَهيَ رَميمُ

فسياقها الجاد ورد في قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(٤) .

وتوظيفه للتركيب القرآني ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ في قوله (٥):

وَمُستَخبرٍ خبَرَ الطيلسانِ   فقُلتُ لهُ : (الروحُ من أمر رَبي)

فسياقها الجاد ورد في قوله تعالى ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٦) .

وتوظيفه للتركيب القرآني ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ...﴾ في قوله(٧) :

فسيكفيكهم الله   إلى آخر الآيـه

---

(١) سورة القمر ، الآية : ١٩ .

(٢) سورة القمر ، الآية : ٣١ .

(٣) **جمع الجواهر** ، ص ١٥٧ .

(٤) سورة يس ، الآية : ٧٨ .

(٥) **زهر الآداب**، ص ٤١٠ .

(٦) سورة الإسراء ، الآية ٨٥ .

(٧) **المحاسن والأضداد** ، ٩٥ .

فسياقها الجاد ورد في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(١) .

وتوظيفه للتركيب القرآني : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ في قوله(٢) :

أبداً يقرأ مَن أبصرَه   أإذا كُنا عِظاماً نَخِرَه

فسياقها الجاد ورد في قوله تعالى "قالوا ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ... ﴾(٣) .

ومن ذلك توظيفه للتركيب القرآني ﴿ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ في قوله(٤) :

كالكلبِ إن تَحمل عليـ   ـه الدهرَ أو تتركه يلهث

فسياقها الجاد ورد في قوله تعالى ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا ... ﴾(٥) .

وهو في هذا لايقتصر على الكتاب العزيز بل يوظف تراكيب الحديث النبوي ومفرداته ، أو ما يضادها مثل : "الأبيضان" في قوله(٦) :

وكيف تبعر شاةٌ عندكم مكثت   طعامها الأبيضان الشمس والقمرُ

في مقابل " الأسودان " الذي ورد بهما الحديث الشريف : «عَنْ عُرْوَةَ عَنْ

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٣٧ .

(٢) **زهر الآداب** ، ص ٥٢٥ .

(٣) سورة النازعات ، الآية : ١١ .

(٤) **وفيات الأعيان** ٧/٩٧ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٦ .

(٦) **جمع الجواهر** ، ص ٣٥٥ .

عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ : ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الهِلال ثُمَّ الهِلال ثلاثة أَهِلَّة فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ فَقُلْتُ يَا خَالَةُ: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ ؟ قَالَتْ : الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ ، إلا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأنصار كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَا»[١] .

١٢- البديعيات :

ومن خصائص شعر الحمدوي، كثرة الفنون البديعية التي نجدها في مقطوعاته، من غير أن يسلمه ذلك إلى التكلف، ومن أهم تلك الفنون :

أ - **المطابقة** : "وهو الجمع بين متضادين أي: معنيين متقابلين في الجملة."[٢]، ومنها عند الحمدوي المطابقة بين "غدوة" و "عشيا" في قوله[٣] :

فهوَ في الرَفو آل فرعَونَ في العَر ... ض علَى النارِ غُدوَة وَعشياً

والمطابقة بين "أتهم" و "نجد" في قوله[٤] :

إن أتهمَ الرُفَاءُ في رَفوهِ ... مَضى بهِ التمزيقُ في نَجدِ

والمطابقة بين "أبيض" و "أسود" في قوله[٥] :

قد كانَ أبيضَ ثمَّ مازلنا بهِ ... نَرفوهُ حَتى اسودَّ مِن صَدَإ الإبَر

(١) **صحيح الجامع الصحيح** . للإمام البخاري .- ط١ .- الرياض : دار السلام ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م حديث رقم : ٢٥٦٨ ، ص ٥١٠ .

(٢) **الإيضاح في علوم البلاغة** ، ص ٤٩٥ .

(٣) **طبقات الشعراء** ، ص ٣٧٠ .

(٤) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٦- ١٠٤٧ .

(٥) **طبقات الشعراء** ، ص ٣٧١ .

والمطابقة بين "ضر" و "نفعا" في قوله(1):

لم يزدني الرفو إلا ولعـا ضرنـي أكـثر ممـا نفعـا

والمطابقة بين "أفاد" و "أصابا" في قوله(2) :

قلتُ لما رُميتُ منهُ بما أكـ ـره والدهرُ ما أفاد أصابا

والمطابقة بين "ولى" و "أقبلت" في قوله(3) :

ثم ولى فأقبلـت تتغنى من الأسـف

ب - مراعاة النظير : "وهي أن يجمع بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد"(4) ، ومنه عند الحمدوي مراعاته بين "الطيلسان" و"القميص"، وبين "الآل" و"الغيم" في قوله(5):

وطيلسان كالآل يلبسه على قميص كأنه غيم

ج - الإرصاد: "وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة ، أو البيت ما يدل على العجز "(6) ، ومنه أن الحمدوي أرصد لـ "لباسا" بـ "لبس" في قوله(7) :

لبـس الأيـام حتـى لـم تـدع فيـه لباسـا

وأرصد لـ "ملكي" بـ "يملكني" في قوله(8) :

كأنه من طول رفقي به يملكني مذ صار في ملكي

---

(1) **المحاسن والمساوئ** ، ص ٨٥ .

(2) **زهر الآداب**٢ / ١٠٤٥ .

(3) **العقد الفريد** ٢/٣٠٢ .

(4) **الإيضاح في علوم البلاغة** ، ص ٥٠٥ .

(5) كتاب **التشبيهات** ، ص ٢٤٠ .

(6) **الإيضاح في علوم البلاغة**، ص ٥٠٩ .

(7) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٨ .

(8) كتاب **التشبيهات** ، ص ٢٤١ .

وأرصد لـ "تدرعت" بـ "دراعتي" في قوله[١] :

يا ابنَ الحُسَين أما تَرى دَرّاعَتــي   سملاً تَــرَدَّت بالبلــى وَتَدَرَّعَــت

وأرصد لـ "الوهن" بـ "أوهنت" في قوله[٢] :

ما فيكَ مِن مَلبَس يُغني وَلا ثمَنٍ   قد أوهَنَت حيلتي أركانُكَ الوُهُنُ

د - **المشاكلة:** وهي "ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته."[٣] ، ومنها أن الحمدوي قال : "خلعنا" بدلاً من "ضربنا" للمشاكلة مع "خلعة" في قوله[٤] :

سالنا خلعة على ما تغنـى   فخلعنا على قفاه النعـالا

هـ - **الجمع:** "وهو أن يجمع بين شيئين أو أو أشياء في حكم واحد"[٥] ، ومنه قول الحمدوي[٦] :

أبي وابنا أبي والكلبُ عندي   بمنزلة إذا حضرَ الطعامُ

و - **المذهب الكلامي** : "وهو أن يورد المتكلم حجـة لما يدعيـه على طريقـة أهل الكلام "[٧]، ومنه قول الحمدوي[٨] :

إن أزينه يا ابنَ حربٍ بذمي   فجريرٌ قد زانَ قبلي بجيله

---

(١) **وفيات الأعيان** ٦/٩٦ .

(٢) **ثمار القلوب** ، ص ٦٠٣ .

(٣) **الإيضاح في علوم البلاغة** ٢/ ٤٩٣ .

(٤) **العقد الفريد** ٦/ ٨٣ - ٨٤ .

(٥) **الإيضاح في علوم البلاغة** ، ص ٥٢١ .

(٦) **ربيع الأبرار** ، ص ٨٠٣ .

(٧) **الإيضاح** ، ص ٥٣١ - ٥٣٢ .

(٨) **زهر الآداب** ٢ / ١٠٤٧ .

ز - **حسن التعليل** : وهو أن يدَّعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي"[١] ، ومنه حسن تعليل الحمدوي لتحامقه في قوله[٢] :

عذلوني على الحماقة جهلاً وهي من عقلهم ألذُّ وأحلى

حمقي اليوم قائمٌ بعيالي ويموتون إن تعاقلتُ ذلا

ح - **تجاهل العارف** : "وهوسؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلاً منه ؛ ليخرج الكلام مخرج المدح أو الذم." [٣] ، ومنه قول الحمدوي[٤] :

أيا طَيلسانِيَ أعيَيتَ طِبّي أسِلٌّ بجسمِكَ أم داءُ حُبٍّ ؟

وقوله[٥]:

وكيف تبعر شاةٌ عندكم مكثت طعامها الأبيضان الشمس والقمرُ ؟

وقوله[٦] :

أتبغضُ نفسك من بغضها وإلا فأنت إذاً أحمق ؟

ط - **الموازنة** : "وهوأن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية"[٧]، ومنه قول الحمدوي[٨]:

إن تَنفَّستُ فيهِ ينشقُّ شقاً أو تَنَحنَحتُ فيهِ يَنقدُّ قدّاً

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٥٣٣ .
(٢) غرر الخصائص الواضحة ، ص ١٢٨ .
(٣) تحرير التحبير ، ص ١٣٥ .
(٤) زهر الآداب١/٥٥٢ .
(٥) جمع الجواهر ، ص ٣٥٥ .
(٦) العقد الفريد ٢/١٤٤ .
(٧) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٥٦٨ .
(٨) طبقات الشعراء، ص ٣٧٠ .

فوازن بين "ينشق شقا" و"ينقد قدا" .

ي - **رد العجز على الصدر** : "وهو أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما، في أول الفقرة، والآخر في آخرها"(١) ، ومنه رد الحمدوي "الوهن" على "أوهنت" في قوله(٢) :

ما فيكَ مِن مَلبَس يُغني وَلا ثمَنِ   قد أوهَنَت حيلتي أركانُكَ الوُهُنُ

ومنه رده "تدرعت" على "دراعتي"(٣) :

يا ابنَ الحُسَين أما تَرى درّاعَتي   سملاً تَرَدَّت بالبلى وَتَدَرَّعَت

ك - **لزوم ما لا يلزم** : "وهو أن يجيء قبل حرف الروي وما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في مذهب السجع"(٤) ، ومنه عند الحمدوي قوله ملتزماً الياء واللام قبل الهاء(٥) :

أراكَ الدهر تطرق كل دار   كأمر الله يحدثُ كل ليله

فإن غلظ الحجابُ وكانَ صعباً   ولم تقدر هناك على دخيله

أخذت لكي تخاطبهم خلالاً   وقلت نسيت عندكم نعيله

فتلتهم الخوان بما عليه   وتبدرهم إلى بيض البقيله

وتأكل أكل ميسرة وأيضاً   فلا بد لعرسك من زليله

وأنت بفضل حذقك ذا طفيلٌ   وتلك بما تُزلُّ لها طفيله

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٥٥٩ .

(٢) ثمار القلوب ، ص ٦٠٣ .

(٣) وفيات الأعيان ٦/٩٦ .

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٥٧٠ - ٥٧١ .

(٥) ثمار القلوب ، ص ١٩ .

الخاتمة :

لقد كان الحمدوي ساخراً، فكه الحديث، بارعاً في التصوير، دقيقاً في الملاحظة، جيد المقارنة بين الأشياء، حاضر البديهة. ألفاظه موجزة بليغة، وأسلوبه سهل قريب، طريف المعنى، يعتمد التلويح والتعريض، فيكني حيناً، ويصرح حيناً. يفيد في سخريته من ثقافته الموسوعية التي عمادها: القرآن والحديث والشعر والشعراء. وسخرية الحمدوي سخرية المبدع الذي يفتق المعاني البكر بالبديهة الحاضرة والثقافة الواسعة، والحس المرهف ، والملاحظة الدقيقة، والبراعة في عقد المقارنات والموازنات، والبيئة الغنية بالسخر، بل ويسخر من نفسه ومن تحامقه سخرية تجمع المتناقضات لتستولد من رحمها الإضحاك والهزء ، فترى الآية الكريمة والقول المأثور والبيت الشعري المشهور وأعلام الناس وأفكار المذاهب والملل ومصطلحات العلوم ، بل وألعاب القوم وأدوات لهوهم وسيلة شاعرنا للسخر والتعبث بضحاياه التي لا صلة بينها وبين شيء مما تقدم ، فموضوعاته غاية في البساطة : طيلسان ابن حرب الممزق البالي ، وشاة سعيد الهزيلة العجفاء ، ورغيف أبي نوح ، وبخل أبي برزة ، وعشق أبي خرزة وأبي زرارة ، وغناء ابن سالم، ولايستثني الحمدوي نفسه من السخرية فيسخر من ذاته سخرية مرة من صروف الدهر، وانقلاب الأوضاع وامتد هذا إلى سخريته من زمنه وسوء حاله.

ومن أبرز خصائص الحمدوي في سخريته أنسنة رموزها وأبطالها ، وبث الحياة في جوامدها، وبعث الحركة في سواكنها ، وإسباغ صفات الكائن الحي عليها، واتخذ من الاستدلال المنطقي ، والاحتجاج العقلي سبيلا لإثبات سخريته وتأكيدها وتنميتها ، فهو لا يكتفي بالاستنتاج أو الادعاء ، بل يعمد إلى المقاييس المنطقية، والأدلة العقلية، والتعليلات الجدلية ؛ ليثبت صحة استنتاجه ، وصواب سخريته .

وقد كانت المبالغة معقد السخر عنده حين يوقع المفارقة بين الأحوال ، مخالفاً المعروف ، وخارجاً على المألوف .. والحمدوي يعيد النظر متأملاً في كل معنى يقصده، ويكثر الرجع فيه حتى ينفذ إلى باطنه وتفاصيله ، فيسبر أغواره ويستقصي أبعاده، ويقلبه في شتى الوجوه، وينظر إليه من كل الزوايا إلى أن يقف على كل خصائصه ودقائقه . كما اتسمت سخريته بالمتح من بيئته التي عاش فيها ، فهي تكاد تشكل شعره ، وتمده بسبل الإبداع فيه، متناغماً مع عصره ، ومصوراً مجتمعه ، متفاعلاً مع كل ما يسمع أو يرى في حياة الناس . وكانت كل موضوعات سخريته مأخوذة من بيئته، بعد طول معايشة، ومعرفة دقيقة بها، ونظر معاد في تفاصيلها، ومحال أن يكون هذا إلا باتصال مكثف بالبيئة .. ويضج المتن الشعري للحمدوي بواقعه الذي عاشه في البصرة من حيث الألفاظ، والصور ، والموضوعات، فتشبيهات الحمدوي وأوصافه مستقاة من بيئته . وفي معاني الحمدوي وصوره اختراع ولطافة، فهي صور بديعة مضحكة من خلال اختراع النوادر والنكت الملفقة وإضافتها إلى الضحية.

وأما خصائص الحمدوي الفنية في شعره فإن أبرزها الاقتباس ، إذ حفلت مقطوعاته بالألفاظ والتراكيب القرآنية ، وقريب منه شيوع التضمين في شعره فهو يستعير الأنصاف والأبيات من الشعراء ، ويدخلها في مقطوعاته" . وفي شعر الحمدوي لوازم شعرية يكثر تردادها وهي لازمة التغني : فمعظم شخصيات سخريته العجماء ، وغير العجماء ، والجمادات ، بل وهو يتغنى بالشعر ، ومثلها لازمة الإنشاد غير أنها أقل دورانا من أختها ، والثالثة لازمة "كم التعجبية" وغالباً ما يمهِّد بها للازمتين السابقتين . وهناك لازمة " قل " ، وهي أقل من سابقاتها ، وامتاز شعر الحمدوي بتنوع مطالع مقطوعاته على الرغم من أن موضوعاته قليلة ، ولكنه يبدع في تقليبها وتفتيق معانيها ، ومنطلقه نحو تلك المعاني مطالعه التي يستهل بها

مقطوعاته ومنها : النداء . وهو أكثر مطالعه، والأمر، والخبر بنوعيه المؤكد والمرسل ، والبدء باسم المسخور منه ، أو كنيته أو لقبه ، وقد يكون الاستفهام مطلعه ، وحينا "كم التعجبية" ، أو الدعاء ، أو الظرف .

ويعنى الحمدوي بخواتيم مقطوعاته كما هي عادة البلغاء ، ويؤسس لها من أول بيت في المقطوعة ، ويظل يترقى في بناء أبياتها وهو ينظر إلى البيت الأخير منها ، وغالباً ما يختم الحمدوي مقطوعته بآية قرآنية ، أو بمأثور من القول أو ببيت من الشعر . ويتسم الحمدوي في لغته وقاموسه الشعري بالبساطة والسهولة التي تقترب من حديث الناس اليومي ، ولذا نلمح في مقطوعاته تراكيب وألفاظاً مستقاة من حديث الحياة اليومية التي تدور في مجالس الأنس ، وبين المحبين ، وينطق بها الناس في أسواقهم وأزقتهم . ومن خصائص الحمدوي ما تحفل به مقطوعاته من حوارية ظاهرة يصيرها سبيلا لحمولته الساخرة .

وقد أحسن الحمدوي توظيف الاعتراض الذي ينمي من خلاله أثر السخرية ، ويفرع أغصانها . كما وظف الثنائية في سخيرته اللاذعة، فيذكر المتضادين ثم يعقد المقارنة بينهما، موازناً بين صفاتهما، وصانعاً السخر من التقابل بينهما .. وفي شعر الحمدوي موسيقية مطربة ، تكشف عن ذائقة شعرية ، وبصر بالإيقاع،ولهذه الموسيقية عنده آليات أهمها : التجنيس ، والتصريع ، والتكرار .

ومن خصائص الحمدوي في شعره ، كثرة الفنون البديعية التي نجدها في مقطوعاته من غير أن يسلمه ذلك إلى التكلف ، ومن أهم تلك الفنون : المطابقة ، ومراعاة النظير، والإرصاد ، والمشاكلة ، والجمع ، والمذهب الكلامي ، وحسن التعليل، وتجاهل العارف ، والموازنة ، ورد العجز على الصدر، والمزاوجة ، ولزوم ما لايلزم .

المراجع

- الأصفهاني، أبو الفرج . **الأغاني** ·- ط٢ ·- بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م ·
- البخاري ، محمد بن إسماعيل . **الجامع الصحيح** ·- ط١ ·- الرياض : دار السلام ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م ·
- البيهقي ، إبراهيم . **المحاسن والمساوئ** ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ·- القاهرة : مكتبة نهضة مصر ، (د.ت) ·
- الثعالبي ، أبو منصور . **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ·- القاهرة : دار نهضة مصر ، ١٩٦٥م·
- ـــــــ . **يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر** ؛ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ·- ط٢ ·- بيروت : دار الفكر ، ١٩٧٣م ·
- الجاحظ ، عثمان بن بحر . **المحاسن والأضداد** ؛ تحقيق علي فاعور وزميليه ·- ط٢ ·- بيروت : دار الهادي ، ١٤١١هـ - ١٩٩١ م ·
- ابن الجراح ، محمد بن داود . **الورقة** ؛ تحقيق د. عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج ·- ط٢ ·- القاهرة : دار المعارف ، (د.ت) ·
- الجرجاني ، عبد القاهر . **أسرار البلاغة** ؛ تحقيق محمود شاكر ·- ط١ ·- جدة : دار المدني ·
- ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي . **أخبار الأذكياء** ؛ تحقيق بسام الجابي ·- ط١ ·- بيروت : دار ابن حزم ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م ·
- حسان بن ثابت . **ديوانه**؛ تحقيق سيد حنفي حسنين ·- ط١ ·- القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٣م ·

- حسين، السيد عبدالحليم . **السخرية في أدب الجاحظ** .- ط١ .- ليبيا : الدار الجماهيرية ، ١٣٩٧هـ - ١٩٨٨م
- ابن خلكان . **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ؛ تحقيق إحسان عباس .- بيروت: دار صادر ، ١٩٧٧ م
- الراغب الأصفهاني ، الحسين بن محمد . **محاضرات الأدباء** .- بيروت : دار الآثار ، (د.ط) ، (د.ت) .
- ابن الرومي . **ديوانه** ؛ تحقيق كامل كيلاني .- القاهرة : المكتبة التجارية ، ١٩٢٤م.
- الزمخشري ، محمد بن عمر . **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار** ؛ تحقيق د. سليم النعيمي .- بيروت : مطبعة العاني ، (د.ت) .
- السيوطي ، جلال الدين . **معترك الأقران في إعجاز القرآن** ؛ تحقيق علي البجاوي.- القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٦٩م ١/, ٣٣٣ .
- الصفدي، صلاح الدين . **كتاب الوافي بالوفيات** .- ط٣-. بيروت : دار صادر ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠.
- الصولي ، أبو بكر . أدب **الكتاب** ؛ تحقيق محمد الأثري .- القاهرة : المطبعة السلفية ، ١٣٤١هـ .
- ضيف ، شوقي . **العصر العباسي الثاني** .- ط٨ .- القاهرة : دار المعارف ، د.ت.
- طه ، النعمان محمد أمين . **السخرية في الأدب العربي** .- ط١.- القاهرة : دار التوفيقية، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ابن عبد ربه ، أحمد . **العقد الفريد** ؛ تحقيق علي شيري .- ط١ .- بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .
- عطية الله، أحمد. **سيكولوجية الضحك**.- القاهرة: مطبعة عيسى الحلبي، ١٩٤٧م.
- العمري ، محمد . مقال : بلاغة السخرية الأدبية، **مجلة علامات**، نادي جدة، الجزء العشرون، المجلد الخامس، صفر ١٤١٧هـ - يونيو ١٩٩٦م .

- ابن أبي عون . **كتاب التشبيهات** ؛ تحقيق محمد عبد المعين خان ٠- لندن : مطبعة جامعة كمبردج ، ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠م ٠
- القوصي ، عبد العزيز . **أسس الصحة النفسية** ٠- ط٦ ٠- القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ،١٩٨٠ م٠
- القيرواني ، الحصري . **جمع الجواهر في الملح والنوادر** ؛ تحقيق علي البجاوي ٠- ط١ ٠- القاهرة : دار الحلبي ، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣م٠
- . ______ **زهر الآداب وثمر الألباب** ؛ تحقيق علي البجاوي ٠- ط٢ ٠- القاهرة : دار الفكر العربي ، (د.ت) ٠
- القزويني ، الخطيب . **الإيضاح في علوم البلاغة** ؛ تحقيق محمد فرهود وزميليه٠- ط٦ ٠- القاهرة : دار الكتاب المصري ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ٠
- الكتبي ، محمد بن شاكر . **فوات الوفيات** ؛ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ٠- القاهرة : مكتبة النهضة ، (د.ت) ٠
- الكيلاني ، إبراهيم . **أبو حيان التوحيدي** ٠- القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٧م ٠
- المصري ، ابن أبي الأصبع . **تحرير التحبير** ؛ تحقيق حنفي محمد شرف ٠- القاهرة : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥ م ٠
- ابن المعتز ، عبد الله . **طبقات الشعراء** ؛ تحقيق عبد الستار فراج ٠- ط٣ ٠- القاهرة : دار المعارف ، (د.ت) ٠
- ابن منظور، جمال الدين محمد. **لسان العرب** ٠- بيروت: دار صادر، (د.ط)، (د.ت)٠
- النعماني ، نشأت . **فن السخرية في شعر ابن الرومي** ٠- ط١ ٠- القاهرة : مطبعة السعادة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ٠
- الوطواط ، محمد بن إبراهيم . **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة** ٠- القاهرة ، ١٢٩٩هـ ٠